الدكتور عمر محمد

نفسيّة البارودي من خلال شعره

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مقدمة

لكي ندرس نتاج الاديب علينا أن نفهمه كانسان أولاً ، لان العلاقة بين النص والتجربة الشعورية التي خلقته علاقة جدلية دائماً .

وقد عنيت الدراسات القليلة التي كتبت عن محمود سامي البارودي . بالناحية الفنية في شعره وريادته لبعث الشعر العربي دون العناية بسبر اغوار نفسه لاستخلاص تجاربه الشعورية التي ولدت شعره .

وقد اختلف المؤرخون في وطنية محمود سامي البارودي ، فقد شارك في الثورة العرابية ونفي مع زعمائها الى سيلان . فمنهم من اتهمه بالطمع للوصول الى الحكم . ومنهم من دفع عنه هذه التهمة معللا انه آمل في الوصول الى الحكم في شبابه . ولكنه شارك في الثورة العرابية بدافع وطني .

ومن هنا بدأت دراستي هذه كاشفاً النقاب عن البارودي الانسان لانتقل منها الى دراسة فنية لادب البارودي (النزعة الفنية في شعر البارودي) والتي تمثل القسم الثاني من الدراسة . ونظراً لضيق المجال في مجلة آداب الرافدين أرجأت نشر القسم الثاني إلى فرصة اخرى .

ولا اعتبر هذه الدراسة نهائية بل هي محاولة جديدة لدراسة نفسية الاديب من خلال شعره ارجو ان اكون قد وفقت فيها . واذا ما فاتني التوفيق فهي لاتخلو من فائدة يمكن ان يبني عليها الدارسون في المستقبل دراسة أعم واشمل .

البارودي والطموح :

ولد البارودي في السادس من تشرين الاول عام ١٨٣٨من اسرة جركسية(١) « تجري في عروقها دماء الامراء من دولة المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف القرن . ١٣٨٢ – ١٥١٧». (٢) وكان البارودي شديد الاهتمام بنسبه حتى انه صرف مبلغاً كبيرا من المال وراجع نصوصاً كثيرة حتى خرج بنسبه من ناحية امه وسجلها (بحجة الوقف الشرعية المسطرة في محكمة مصر والمؤرخة ١٨ من ذى القعدة عام ١٠٩٧هـ وكما في حجة التغيير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥هـ إلى نوروز الاتابكي الملكي الاشرفي اخي برسباى قرا المحمدي » . (٣)

والغالب في هؤلاء المولدين ضياع نسبهم وغموض منشئهم لضعف الرابطة العائلية بينهم . لان الرجل منهم ينتسب إلى مالكه او رئيسه او يعرف بلقب يلقبونه به ومن هنا ضاعت اصولهم واصبح تحقيقها امرا صعباً . لذا استغرب بعض الباحثين ثبوت نسب البارودي كما سجله في حجة الوقف وانتسابه إلى نوروز الاتابكي فقال : « ونستغرب ثبوت هذه النسبة للاسباب التي قدمناها من ضياع اسم العائلة عندهم حتى نوروز هذا فانه لاينتسب إلى ابيه وانما يعرف بانتسابه إلى الملك الاشرف ومنها اسمه الملكي الاشرفي ، وقد كان في ذلك العصر جماعة يعرفون بهذا الاسم كل منهم ينتسب إلى صاحبه . (٤)

(١) الجراكسة : طبقة من المولدين الذين وفدوا إلى مصر بعد ان غزا التتار بلادهم ودمروها وساقوا اهلها جماعات الى اسواق الرقيق واستكثر سلاطين مصر وذوو النفوذ من شرائهم وكانوا بعد شرائهم ينسبونهم اليهم فيحملون اسماءهم ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم واموالهم وحتى نساءهم وكانت رابطة الولاء للسيد والوطن الجديد أقوى من رباط الاسرة والوطن الأم .الحديدى محمود سامي البارودي ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) الحديدي ص ١٥ .

(٣) مقدمة ديوان البارودي شرح الامام .

(٤) جرجي زيدان تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

اما امه فاطمة هانم البارودية فهي الوريثة الوحيدة لعلي أغا البارودي — بعد موت اخيها ابراهيم — الذي قتله محمد علي في مذبحة القلعة عام ١٨١١ . وكان والده حسن حسني من الضباط الذين شاركوا في الجيش المصري اثناء الحرب المصرية العثمانية والتي دارت فوق الاراضي السورية وسارت حتى شارفت اسوار الاستانة ثم اصبح من امراء المدفعية وصار مديرا لبربر ودنقلة في عهد محمد علي وتزوج وهو في السادسة والعشرين من عمره بفاطمة البارودية التي كانت تكبره بثمانية عشر عاماً وانتسب إلى اسرتها التي كانت تفوقه في الجاه والغنى — على عادة المماليك وتقاليدهم — « واصبح منذ زواجه يعرف بحسن البارودي بدلا من حسن حسني الجركسي الألفي فهو بارودي ولاءاً لانسباً) (١) وقد اضيف إلى اسمهم لفظ البارودي نسبة إلى (اتاى البارود) لانها كانت من (التزام احد اجداده ، في عصر الالتزامات) . (٢)

ولم يرتح الوالد لتعيينه مديرا لبربر ودنقلة في السودان ، فقد كانت منطقة موبوءة فأصيب بحمى واحس بقرب أجله . وتوفي بعد اربعين يوماً من تسلم منصبه الجديد (٣) وكان عمر ولده محمود سامي سبع سنوات فقط .

وكان ليتمه في هذه السن المبكرة الاثر الكبير في نفسيته فقد أحس بنقص كبير يكتنف نفسه فهو من اولئك الذين لم ينعموا بنعمة الابوة التي فقدها في بواكير عمره ونتيجة لهذا الشعور تفتحت في نفسه حساسية كبيرة وكبرياء عظيمة لتعوض الشعور الذي يحسه « وعرضه موت ابيه لتجربة مبكرة بالحياة والناس وما فيها من شعور تمتلىء به النفوس من ظلم وغدر ومكيدة وعدم وفاء . وهي تجربة ظلت آثارها السيئة تعيش في نفس الصبي حتى كبر ثم انفعل بها فرددها في شعره ولم تزدها الايام واحداثها الا تأكيدا ففقد الثقة بالاصدقاء وظل يبحث عن الخل الوفي مع العنقاء » . (٤)

(١) الحديدي ، ص ٢١ .
(٢) جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .
(٣) الحديدي ، ص ٢٢ .
(٤) الحديدي ، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، ص ٥٠

وقد ظهرت احاسيسه على شكل فخر اكتنف شعره ، فخر بأبيه فخراً يكاد يصل حداً عظيماً وشعر شعوراً طاغياً بعظمة اصله ونسبه مع احساس داخلي بأن مقتل جديه لأمه وأبيه وموت ابيه كان مسببهم واحداً هو محمد علي كبير الاسرة الخديوية . وبدأ ينمو حقده الدفين على هذه الاسرة منذ صغره دون ان يستطيع الافصاح عنه في اول الامر ولكن ما ان تسنح الفرصة مع قيام حركة الضباط وتبلورها في عهد اسماعيل وتوفيق حتى يكشف عن مكنون نفسه ضد الاسرة الخديوية .

وسنناقش هذه الظاهرة فيما بعد وفي مكانها المناسب . فهو يقول في رثاء والده :

لافارس اليوم يحمي السرح(١) بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الاقران صولته ويتقي بأسه الضرغامة العادي

من هو قرينه الذي يتقي صولته ؟ أليس هو الاسد الجائر المعتدي ؟ ترى من هو أليس محمد علي نفسه ؟ القاتل ، مدبر مذبحة القلعة . الخائن لمن وثقوا به وقبلوا دعوته فأخذهم على حين غرة ؟ فلماذا لايتقي صولة هذا الفارس الشجاع « حسن حسني » — كما يتصوره ابنه محمود سامي — ويرسله الى حيث لارجعة . الى منطقة تكثر فيها الاوبئة والامراض ليموت هناك ويتخلص من صولته ؟ ومحمد علي يخاف هذه الصولة فقد قتل اباه عبدالله الجركسي الألفي في مذبحة القلعة ايضاً . فله عليه ثأر لايمحى . هذا بالاضافة الى شجاعته ومقدرته . ألم يختر مع خمسمئة من اترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجهيزية بالقصر العيني اول انشائها عام ١٨٢٥ . (٢) وكثيرا ماحدثته امه عن شجاعة ابيه حسن حسني وابلائه في حرب الانضول وتقدمه مع الجيش المصري الى حصون الاستانة للاستيلاء عليها عندما قاد ابراهيم باشا جيش والده

---

(١) السرح : الانعام التي ترعى الكلاء .
(٢) الحديدي ، ص ٢٩ .

الفاتح . لذا لايجد الشاعر اثراً للخير بعد موت والده فقد هانت الدنيا واستشرت الضلالة وجف الخير والعطاء وماتت الحياة في الاحياء .

هـانت لميتته الدنيـا وزهّدنا ... فـرط الأسى بعده في الماء والزاد
هـل للمكارم من يحيي مناسكها؟ ... أم للضلالة بعد اليوم من هادي
جف الندى وانقضى عمر الجدا(١) ... وسرى حكم الردى بين ارواح واجساد
مضى وخلفني في سن سابعة ... لايـرهب الخصم ابراقي وارعادي
اذا تلفت لم ألمح أخـا ثقة ... يـأوى الـيّ ولا يسعـى لانجادي

هذا الاحساس بالضعف وعدم القدرة هو الذي دفعه الى الشك بجميع الناس فهو لايجد بينهم من يثق به لأنه لم ير احداً منهم سعى لحمايته ابان ضعفه وحاجته للرعاية (٢) غير امه التي حبته بعاطفة عظيمة كثيراً مـا كانت تدفع في نفسه القوة والشجاعة والاباء .

فالعين ليس لها من دمعها وزر(٣) ... والقلب ليس له من حزنه فادي
فان أكن عشت فردا بين آصرتي(٤) ... فهأنا اليوم فرد بين أندادي

وسرعان ما ظهر على شكل كبرياء متضخم بنفسه وبأبيه وبأصله.

فما مددت يدى الا لمنح يـد ... ولا سعت قدمي الا لأسعـاد
تبعت نهج أبي فضلا ومحمية (٥) ... حتى برعت وكان الفضل للبادي
أبي ومن كأبي في الحي تعلمه ... اوفي واكرم في وعد وايعـاد(٦)
مهذب النفس ، غراء شمائله ... بعيد شأو العلا . طلاع انجاد(٧)
قد كان لي وزر آوي اليه اذا ... غاض المعين وجف الزرع بالوادي

---

(١) الجدا : العطاء والفضل .

(٢) انظر ديوان البارودي جـ١ : ١٣ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ١١٤ ، ٢٢١–٢٢٢–جـ٢ : ١٤ ، ١٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٧٧ جـ ٣ ٨٤ ، ٢٣٠ - ٢٥٤ ، ٤٨٣ - ٤٨٥ .

(٣) الوزر : الملجأ والمعتصم

(٤) آصرتي : الرحم والقرابة .

(٥) محمية : صيانة .

(٦) الوعد للخير والايعاد للشر .

(٧) طلاع انجاد : يركب صعابا الامور غالب شجاع .

هذا الاب الذي يتصف بكل هذه الخلال الحميدة كان ملجأ للشاعر — ابنه — حين تصعب الامور ويفتقد الحل الصحيح. ترى هل كانت هناك صعاب في طفولة البارودي ؟ لااعتقد ذلك فقد كان الابن الوحيد وبالتالي كان الابن المدلل الذي يقدم اليه كل ما يطلب ويشتهي . ولكنه التعويض ثانية عن الاحساس الذي احسه من جراء يتمه ان لا شعوره يرفض موت ابيه فيستولي على الشعور وينساب في وحي شعره فهو المتنفس الوحيد لاعادة التوازن الى نفسه فهو يجمع الماضي البعيد — الطفولة — الى الماضي الاقرب — الصبا والشباب — فيمزجهما لاشعوره معاً ليوحدهما في زمن نفسي لا في زمانيهما الحقيقيين . فهو في صباه وشبابه مر بصعاب واحتاج إلى مساعدة ومشورة وكان يتمنى لو وجد الاب الذي يأخذ بيده فأخرج هذا التمني الى حيز الوهم المصدق فأنقلب الوهم حقيقة في لاشعوره وهو يستنجد اباه لمساعدته . ولا شك ان امه كانت هي العون الحقيقي له . ولكنه يأبى في (لاشعوره) ان يتلقى المشورة من امرأة ولو كانت هذه المرأة امه . انه تضخم الرجل الكامل في نفسه الذي عوض النقص من عدم وجود هذا المثال الكامل الذي يحتاجه الاطفال للاقتداء به وتمثله . وغالباً ما يكون هذا المثال متمركزا في الاب عند الابناء الاسوياء في داخل الاسر الطبيعية غير الشاذة . فاذا به بعد ذلك يعكس نظرته الخاصة للحياة — والمتولدة عن الاحساس بالضعف والنقص من ناحية وارشادات الأم التي وجدت نفسها ابا في الوقت ذاته بعد موت زوجها — على أبيه وربما كانت خلال ابيه كما اوحتها اليه امه فرسخت في نفسه وطغت . على سلوكه فهو يريد أن يكون اباه . اليست أمه في حاجة الى الحماية ؟ اليس هو الرجل الحامي الوحيد المتبقي في الاسرة . فقد زال هذا الأب من حياته في وقت كان بأمس الحاجة اليه . فترة الصبا حيث يحتاج كل صبي الى المثال الذي يقتدي به . وها هو المثال يذوى . اذن لم لايحييه في نفسه يتصوره من تراكمات احاديث امه عن ابيه وجديه ؟ ومن هنا تقمص الولد الأب .

لا يستبد برأي قبل تبصره ولا يهم بأمر قبل اعداد
تراه ذاهبة في كل نائبة كالليث مرتقباً صيداً بمرصاد (١)

ان ترقب الصيد بالمرصاد سمة بارزة في سلوك الشاعر فهو يترقب الفرص دائماً للوصول الى مايريد فكلما حقق املا سعى لتحقيق امل اكبر عن طريق ترقبه لاحتيال الفرصة التي تحقق له مايريد . وهي سمة من سمات ذلك العصر الذي كان لايصل فيه الى المعالي الا الرجل المغامر الجسور الذي يحسن اقتناص الفرص والاستفادة منها .

وما أن تنزل به محنة او يشعر بضيق من الناس الذين حوله ، وهو لايثق بأحد من الناس كما يبدو في شعره . حتى يعود الى ذكر أبيه ، انه العون المتمثل في اللاشعور منذ الصغر .

فمن لي— وروعات المنى طيف حالم بذي خلة تزكو لديه الصنائع
اشاطره ودى وافضي لسمعه بسرى وأمليه المنى وهو رابع (٢)
لعلي اذا صادفت في القول راحة نضحت غليلا ما روته المشارع
لعمر أبي وهو الذي لوذكرته لما اختال فخار ولااحتال خادع
ولكنني في معشر لم يقم بهم كريم ولم يركب شبا السيف خالع (٣)
لواعب بالاسماء يبتدرونها (٤) سفاها وبالالقاب فهي بضائع (٥)

اختط الشاعر لنفسه اسلوباً في الحياة بعد أن اشتد عوده يعتمد فيه على اساسين اثنين ، الفردية ، والسعي للوصول الى تحقيق اهدافه التي بدت بسيطة في اول امرها — امرة السيف والقلم — وسرعان ما تضخمت فكانت علوا في المناصب حتى وصلت درجة الطموح الى عرش مصر .

(١) علي الجارم و محمد شفيق معروف ، ديوان البارودي ، الجزء الاول ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .
(٢) رابع : مقيم و منتظر .
(٣) الخالع : الشاب القوي القادر على حمل السلاح .
(٤) يبتدرونها : يسارعون اليها
(٥) ديوان البارودي ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

فقد شب البارودي معتداً باصله ونسبه الجركسي في عصر ساد فيه ابناء جنسه من الجراكسة والاتراك .

انا من معشر كرام على الدهـ ـر افادوه عـزة وصـلاحـا
فرعوا بالقنا فنان المعالـي واعدوا لبابـهـا مفتـاحاً
عمروا الارض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحاً(١)
واتت بعدهم عليّ ليـال لا ارى في سمائها مصباحاً
فسقاهم منزل الغيث سجلا(٢) يجعل النبت للعراء وشاحـاً

ترى هل يريد ان ينتقم لهم ؟ وما السبيل الى ذلك غير أن يتمثل خطاهم ويسير في اثرهم .

هو ماقلت فاحذرنها صباحـاً غارة تملأ الفضاء رمـاحاً
تترك الماء لايسوغ لظـام وترد الدم الحـرام مباحـاً
لاترى بينها سوى عبقـري يألف الطعن بخـدة وارتياحا(٣)
لهـج (٤)بالحروب لايألف الخفـ ـض ولا يصحب الفتاةالرداحا(٥)
مسعر للوغى اخـو غـدوات تجعل الارض مأتما وصياحا
لايرى عاتبا على شيم الدهـ(٦) ـر ولا عابئاً ولا مـزاحـا
يفعل الفعلـة التي تبهر الناس وترنو لهـا العيـون طماحا (٧)

ترى هل هو كذلك ؟ لا اعتقد ذلك . فهو سيفنى في المرأة ويذوب جسداً لا روحاً كما سنرى في شعره . ولكنه المثال الذي رسمه في نفسه يعبر لا شعوره عنه . وهو سينهزم اذا ما جد الجد وتقرر المصير . وهو يفصح عن نفسه في

---

(١) الاجتياح : الزوال .
(٢) السجل : الدلو العظيمة .
(٣) الارتياح : النشاط والاسراع .
(٤) لهج : مولع .
(٥) الرداح : التامة الخلق ، الممتلئة .
(٦) شيم الدهر : طبائعه .
(٧) ديوان البارودي ج ١ ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

البيت الاخير انه يريد أن يبهر من حوله لمجرد البهر ونيل الاعجاب – تعويضاً عن الاحساس باليتم – لذا فهو يسعى الى ان ينظر الناس الى اعماله نظرة اعجاب واندهاش وطموح الى تقليدها .

ويمضي في الافتخار باجداده وأبيه :

نماني الى العلياء فرع تأثلت(١) أرومته في المجد وافتر سعده
وحسب الفتى مجدا اذاطالب العلا بما كان اوصاه ابوه وجدّه
اذا ولد المولود منا فدّره (٢) دم الصيد والجرد العناجيج مهده(٣)
فان عاش فالبيد الدياميم (٤) داره وان مات فالطير الاضاميم(٥) لحده
أصدّ عن المرمى القريب ترفعا واطلب امرا يعجز الطير بعده
ولا بد من يوم تلاعب بالقنا اسود الوغى فيه وتمرح جرده
يمزق استار النواظر (٦) برقه ويقرع اصداف المسامع رعده
فاما حياة مثل مانشتهي العلا واما ردى يشفي من الداء وفده(٨)

فهو يسعى الى الحياة التي يريدها، الحياة التي يثأر بها لاجداده الذين ازالهم حكم محمد علي . فهو مستمر في طلاب ذلك المجد الذي يبتغيه : « وكان كبير المطامع في طلب العلى وذلك نادر في الشعراء لرقة احاسيسهم ولطف مزاجهم وانصراف قرائحهم الى الخيال » (٩)

وبي ظمأ لم يبلغ الماء ريّه وفي النفس امر ليس يدركه الجهد

(١) تأثلت : تأصلت .
(٢) دره : لبنه وغذاؤه .
(٣) العناجيج : جياد الخيل والابل .
(٤) الدياميم : جمع ديمومة وهي للفلاة من الارض .
(٥) الاضاميم : الجماعات واحدها اضامة .
(٦) استار النواظر : الجفون .
(٧) الوفد : الحضور .
(٨) ديوان البارودي ج١ ، ص ١١٨-١١٩، ١٣٤-١٣٥ .
(٩) جرجي زيدان ، بناة النهضة العربية ص ٤٦ .

أودّ وما ود امريء نافعا لـه وان كان ذا عقل اذا لم يكن جد (١)
وما بي من قفر لدينا وانمـا طلاب العلا مجد وان كان لي مجد (٢)

فالمجد الذي يطلبه اذا ليس الثراء ولا الجاه ولا رفعة الشأن ولا المنصب فقد كان آمر لواء عندما نظم هذه القصيدة اثناء الحرب العثمانية الروسية ، اذا فهو يسعى لأكثر من ذلك . واحتمل ان الملك هو الذي يراوده ، فهو الوحيد ابعد من السعي وامل نواله جد بعيد مهما سعى الانسان واجتهد لذا لا يفيد التمني العقل والتدبير ان لم يساعده الحظ في نوال ذلك المجد الذي يريد نواله وان كان يملك مجد اجداده وسعيه ومركزه .

اطالب ايامي بما ليس عنـدهـا ومن طلب المعدوم اعياه وجده
فما كل حي ينصر القول فعلـه ولا كل خل يصدق النقص وعده
واصعب ما يلقى الفتى في زمانه صحابة من يشفى من الداء فقده
وما انا بالمغلوب دون مرامـه ولكنه قد يخذل المرء جهـده
وما ابت بالحرمان الا لأنني أود من الايام مـا لا تـوده
فان يك فارقت الرضا فلبعد ما صحبت زمانا يغضب الحـر عبده

اى زمان هذا الذي يغضب الحر عبده ؟ ذلك الزمان الذي يتحكم فيه القتلة — الخديو توفيق والاسرة الخديوية كما يراها الشاعر فهي التي قتلت جديه واباه كما هو كامن في اللاشعور — ويسود الوضعاء فيه على الاشراف ، لماذا لم يقل البارودي ذلك من قبل ؟ وليس اسماعيل بافضل من توفيق وقد كان سعيد وعباس الاول اسوأ منهما بكثير . ألا يعرف الشاعر اذن وضاعة هذة الاسرة فلماذا مدح اسماعيل عند ذهابه الى الاستانة ليصبح شاعره بعد ذلك ولحق بمعيته وبمعية ولده توفيق ولي العهد آنذاك ؟ هل نتج ذلك عن قصر نظره . فلماذا يفخر دائما بسداد رأيه وحكمته وتقليبه للامور

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) ديوان البارودي ج ١ ، ص ١١٨-، ١٣٤-١٣٥ .

قبل الاقدام عليها ؟ أم كان الشاعر نهازا يقتنص الفرص دائما وقد حانت فرصته الآن بعد ثورة الضباط الاحرار والشعب المصري من ورائهم ، فهو يريد اشعالها حربا لعل الحظ يبسم له — كما يقول — لتحقيق مراميه .

أبى الدهـر الا أن يسود وضيعه ... ويملك اعناق المطالب وغـده
تداعت(١) لدرك الثأر فينا ثعاله ... ونامت على طول الوتيرة (٢)اسده
واقتل داء رؤية العين ظالما ... يسيء ويتلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا ؟ ... أيفرح في الدنيا بيوم يعسده (٣)

فهو لايعد الايام التي تمضي بل يسعى حثيثا الى الامل الذي تضخم في نفسه فهو المسؤول الوحيد عن اعادة مجد اجداده . أليس هو رب السيف والقلم بين مصريين مستضعفين ، وبين حكام من الاتراك والجراكسة يلتوي لسانهم عندما يتلفظون كلمة عربية واحدة . أليس ذلك من حقه ؟ اليس من حقه ان يفخر بمكانة اجداده ويضعهم بكل عظمتهم ورفعتهم — كما يراهم هو — امام اسرة محمد علي المغتصبة الظالمة ؟ ولماذا اذا لايسعى إلى اعادة مجد اجداده ومكانتهم الرفيعة . أليس اهلا لان يكون هو الحاكم بدلا من ابناء اسرة محمد علي الذين لايملكون خصائص الزعامة بينما يملكها هو :

وفتية كأسود الغاب ليس لهم ... الا الرماح اذا احمر الوغي أجم (٤)
ان حاربوا معشرا في جحفل غلبوا ... او خاصموا فئة في محفل خصموا(٥)
مرفهون حسان في مجالسهـم ... وفي الحروب اذا لاقيتهم بهم (٦)
من كل أزهر كالدينار غرته ... يجلو الكريهة منه كوكب ضرم(٧)

(١) تداعت : تجمعت وتألبت بالعداوة .
(٢) الوتيرة : الثأر .
(٣) ديوان البارودي ، ج ١ ، ص ١١٤-١١٦ .
(٤) أجم : عرين الاسد ، وبالضم : الحصن .
(٥) خصموا : غلبوا في الخصومة .
(٦) بهم : جمع بهمة وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتي .
(٧) كوكب ضرم : متوهج .

ماتوا كراما وابقوا للعلا اثرا نالت به شرف الحرية الامم(١)

فهو يسعى إلى اعادة مجد اجداده اولئك الذين حملوا الوية النصر على الصليبيين ورموهم في البحر وحموا « بشجاعتهم المشرق العربي من زحف التتار والمغول المدمر » . (٢) وهزموهم في عين جالوت ورفعوا اعلام مصر المنتصرة خافقة فوق بلاد الشام وجزر البحر الابيض المتوسط . لذا فهو ينظر إلى اسرة محمد علي الحاكمة بأنها مغتصبة وكأنها قد سلبته حقه الشرعي ، ويبدو لي وكأنه قد قرأ كتاب الامير لمكافيللي — وقد لقي الكتاب شهرة كبيرة في اوساط المتعلمين في العالم منذ القرن السادس عشر — ومقولته في المغتصبين فسعى إلى تحقيق هدفه باستعادة حقه الشرعي « ان موقف المغتصب يبقى في البلاد حرجا مهماً كان عادلا في احكامه وقويا بجنده وعدده ، لان اهل الولاية المغتصبة يبقون على عدائه مادام في بلادهم كذلك لايتمكن المغتصب من اكتساب اخلاص جماعة الخائنين الذين مكنوه من بلادهم لانه لايستطيع ان يرضيهم أو يقنعهم ... ومهما تكن قدرته في المال والرجال فلا يمكن ان تستقيم له حال » . (٣)

فلماذا اصيب الشاعر بهذا الغرور ؟ هل هو تعبير عن مكونات نفسه . بسبب يتمه المبكر ؟ ام هناك عامل آخر ساعد على ذلك ؟ لابد من وجود عامل آخر حتماً ، ووراء هذا العامل تكمن امه ، فقد جلبت له المعلمين الى القصر ولم ترسله الى مدرسة المبتديان العامة . وكان التعليم في القصور مقصوراً على اولاد الاثرياء من المماليك والترك . ثم ارسلته الى المدرسة الحربية بعد ذلك وقد ضمت اولاد الجراكسة والاتراك ومماليك الوالي فقط «وهو التعليم الذي لايحترمو ن سواه ويرونه طريقهم الطبيعي الى المناصب الكبرى

(١) الديوان ـ ٣ .
(٢) الحديدي ، سامي البارودي شاعر النهضة ، ص ٧٢ .
(٥) ميكافيللي ، الامير ، ص٥٨

في الدولة » (١) اما دورها في تهيئته النفسية فقد كان اكبر من ذلك بكثير فقد كانت تحدثه عن مجد آبائه واجداده وتذكي في نفسه الاماني والطموح وتربط مجده بمجد اجداده « وقصت عليه مقتل جده علي اغا البارودي وقد غدر به محمد علي ... وتنفعل نفس الصبي بما حدثته امه عن جده علي في حربه الفرنسيين ويوم مقتله » (٢) وتحدثه عن أبيه وكيف دفعه محمد علي الى السودان ليبعده ويأمن صولته . ويتدفق كل ذلك شعرا مشتعلا في فمه وكأنه يريد ان يدرك هذا المجد باسرع مايستطيع من جد ومثابرة :

وسمـــا جـدى علـي ... يطلب النجـم فنـالـه
فهو لي أرث كريم ... سوف يبقى في السلالة (٣)

ويمتد اعجابه بجده الى اعجابه بقومه وبنفسه . أليس هو واحدا منهم ؟ ولكن آثارهم وان ذهبوا تدل على هذا المجد. أليس هو اثرا من هذه الآثار؟ بل اليس الهدف الموعود لاعادة مجد الاجداد ؟

واني امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر :الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل واجبة فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الافلاك والتفت الدهر
لهم عمد مرفوعة ومعاقل ... والوية حمر وافنية خضر (٤)
اقاموا زماناً ،ثم بدد شملهم ... ملول من الايام شيمته(٥)الغدر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة ... تضوع برياها (٦)الاحاديث والذكر

ومن جراء هذا الاحساس المتضخم بالذات الذي سال فخرا بنفسه

(١، ٢) أنظر الحديدي، محمود سامي البارودي، ص ٢٦، ٢٧
(٣) الديوان ج ٣، ص ١٩٦-١٩٧ .
(٤) اخضرار الافنية: دلالة على الكرم .
(٥) الشيمة: الطبيعة .
(٦) الربا: الريح الطيبة .
(٧) ديوان البارودي ج٢، ص ٣٣-٣٥ .

وباجداده على لسانه امتلك قدرة كبيرة على السخرية ممن يريد ان ينتقصهم ويقلل من شأنهم فهو يصغرهم بقدر مايعظم نفسه وخاصة رجال السياسة الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق طموحه ، او زملاؤه الذين شاركهم في ثورة عرابي وعايشهم في منفاهم في سيلان او أصدقاؤه الذين لم يساعدوه — كما توقع — في التخلص من منفاه .

وصاحب لاكان مـــن صاحب ... اخلاقه كالمعدة الفاسدة
اقبح ما في الناس من خصلة ... احسن ما في نفسه الجامدة
لو انه صور من طبعـه ... كان لعمري عقرباً راصدة
يغلبه الضعف ولكنـــه ... يهدم في قعدته المائـــدة
كانما اظفوره منجـــــل ... وبين فكيـه رحى راعدة
ويلمـه اذ مخضت هـل درت ... ان الردى في بطنهـا القاعدة
تبا لها شنعاء جاءت بـه ... من لقحة في(١)فقحة كاسدة(٢)

هل هناك هجاء اقذع من هذا الذي نزل به على رأس عدوه وجسده في صورة (كاريكاتيرية) للزراية والقبح والتشنيع .

وقد كان للقصر الذي سكنه اثر في شاعريته فقد وقف طويلا امام اللوحات الرخامية التي نقشت عليها أبيات من شعر خاله ابراهيم وكانت قد زينت بها جدته الطابق العلوي من القصر بعد وفاة ابنها وهو في ريعان الشباب (٣) ذكرى له وابقاء لأثره في الدار التي خلت من وجوده « فيقرأها — محمود سامي ولا يمل قراءتها ويطلب من امه المزيد من اخبار خاله الشاعر فتحدثه عن الموهوب الذي ذهب في ريعان الشباب وعن حياته في القصر الذي قضى اكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العرب والاتراك وعن القصيد

(١) فقحة : حلقة الدبر .
(٢) الديوان جـ١ ، ص ٢١٤-٢١٥ . انظر قطعة اخرى في جـ ٢ ، ص ١٠٤ ومثلها كثير في الديوان
(٣) مات ابراهيم وهو في سن الخامسة والعشرين ، الحديدي ، ص ٢٨ .

الذي ينساب على لسانه ... ويشعر محمود سامي بقوة خفية تشده الى خاله ابراهيم البارودي وتربطه به ويحس بان بينهماً شبهاً كبيراً فهو نفسه يحب قراءة الشعر ... وهو يحاول ان يقلد قصائد خاله ابراهيم » . (١)

انا في الشعر عـــريـــق لم ارثـــه عـن كـلالـة(٢)
كان ابراهيم خالـــــي فيـه مشهور المقالـة (٣)

وكانت الفرصة قد هيأت له الانصراف إلى القراءة بعد تخرجه في الكلية العسكرية فقد سرح عباس الاول ومن بعده يعيد الضباط ولم يعينا ضباطا جددا « ولكنه احسن دونهم بألم ممض اذ لم يشترك في حرب كما اشترك آباؤه... ودفعه هذا الالم الى طلب العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة في صفحات التاريخ فعكف على كتب الاقدمين يلتهمها التهاماً » . (٤)

وحقق عن طريق كتب الحماسة ودواوين الشعر القديمة التي وجدها في مكتبة خاله ابراهيم ماكان يسعى اليه . وجد الفروسية الموصوفة في حنايا قصائد الفرسان الذين أولع بشعرهم ، وقرض الشعر الذي اخذ يحاول فيه تقليد مايقرأ . وانصب اهتمامه بالدرجه الاولى على شعر الفخر والحماسة ووصف ميادين القتال واعمال البطولة يعوض فيها عن خلجاته وهو يفخر بذلك ايما فخر .

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الانسان ان يتكلمـا
فلا يعتمدني بالاساءة غـافـل فلا بد لابن الأيل ان يترنما

وهو يفخر بنفسه من خلال فخره بالشعر وينسب نفسه كشاعر الى فطاحل الشعراء العرب .

---

(١) الحديدي، ص ٢٨-٢٩ .
(٢) الكلالة: النسب البعيد .
(٣) الديوان ج٣، ص ١٩٥-١٩٦ .
(٤) عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ج ١، ص ١٤٦ .

للشعر في الدهر حكم لايغيره ... مابالحوادث من نقض وتغيير
يسمو بقوم ويهوى آخرون به ... كالدهر يجرى بميسور ومعسور
صحائف لم تزل تتلى بألسنة ... للدهر في كل ناد منه معمور
تزهي به كل سام في ارومته ... ويتقي البأس منها كل مغمور
فكم بها رسخت اركان مملكة ... وكم بها خمدت انفاس مغرور
والشعر ديوان اخلاق يلوح به ... ما خطه الفكر من بحث وتنقير
أبقى زهير به ماشاده هـرم ... من الفخار حديثا جد مأثور
لولا ابو الطيب المأثور منطقه ... ماسار في الدهر يوما ذكر كافور(١)

وقد كان « منذ صباه ميالا الى الشعر له مطمح في الرئاسة كما كان المتنبي وكان من اكبر المساعدين على اشتداد الثورة العرابية » . (٢)

وقد كان للبيئة اثر كبير في اقتران الشعر بالفروسية، فهذا عنترة الشاعر الفارس تتلى سيرته في المقاهي الشعبية وربما صادفهم في طريق رواحه وايابه يقرأون سيرة عنترة والزير سالم والهلالي وسيف بن ذى يزن « وكلهم فرسان مغاوير يقدمون للغارة بانشاد الاشعار ويقرنون بين المناجزة بالحسام والمناجزة بالكلام ومن دأب الايفاع كافة انهم حماسيون يحبون انشاد الحماسيات وقد يغلون في حب الحماسة حتى ينشد احدهم قصيدة الوصف والغزل كما ينشد قصيدة الفخر والمناجزة فاذا كان اليافع على حظ من الطبيعة الفنية فربما كانت المدرسة الحربية يؤمئذ من اسباب اتجاهه إلى النظم وعنايته بالقراءة الادبية » (٣) .

وربما كان في هذا الرأي مبرر آخر لنظم البارودي الشعر خاصة وانه كان منعزلا عن اترابه في الكلية العسكرية يميل الى الوحده والصمت والانفراد(٤) وهذا هو شأن من يثقل عليه الشعور باليتم وفقد السند والعون .

(١) ديوان البارودي، ج ٢، ص ١١٧-١٢٠ .
(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص ٥٨٨ .
(٣) عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٢٩ .
(٤) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٥٨ .

البارودي والفلسفة التي رسمها لحياته :

لقد ضمن البارودي منذ صباه رؤيته الخاصة في قصيدة احتواها ديوانه وهي التي اتيت على ذكرها فيما سبق ومطلعها :

هو ما قلت فاحذرنها صباحاً غارة تملا الفضاء رماحا

وقد افتخر فيها باصله وعراقته وبنفسه وبعبقريته وشجاعته ونجدته . وبأنه يسعى للوصول الى ما يصبو اليه والى القيام باعمال تبهر الناس وهو قوى الشكيمة لايعتب على الدهر اذا ما اصابه مكروه . وهو جاد لايعرف الهزل ولا العبث ولا مصاحبة النساء . وما حديثه هذا الا حديث شاب غر لم يخبر الحياة بعد ولم يقلبها على جوانبها المختلفة . فاذا ما سد في وجهه سبيل العمل في الجيش ، ذلك السبيل الذي طالما سعى اليه لتحقيق الطموح الذي يبتغيه في تلك الفترة من حياته قرر شد الرحال الى الاستانة للعمل هناك عام ١٨٥٧ . والتحق بوزارة الخارجية التركية يعمل فيها كاتماً للسر ، وقد كان يجيد التركية طبعاً ، الى جانب اجادته اللغة الفارسية . وكان من البدهي ان يقوي صلته بهاتين اللغتين بقراءة ادبيهما والنسج على منوالهما . (١) وان يندفع لقراءة الكتب والمخطوطات العربية القيمة ، التي تغص بها مكتبات الاستانة .وان ينفتح على جمال الطبيعة المتنوع هناك ، وان يسعى الى فهم مغاليق اللهو ،الذي كان مقفلا دونه وهو في القاهرة ، في احضان أمه ،التي كانت تراه طفلها المدلل المحتاج الى العناية والرعاية . ومن عجب أن الشاعر لم يحن الى اهله ، أمه واخته واقربائه واترابه ، رغم بعده عنهم في الاستانة سبع سنوات . ولم ينظم قصيدة واحدة توحي بذلك ، وهو في اوج سني مراهقته ، منذ الثامنة عشرة وحتى الرابعة والعشرين ، وهي السن التي يحس فيها الانسان بوحشة من الف اذا بعدوا عنه ، وبالحنين الى الوطن اذا كان متعلقاً به . ترى لماذا لم نقرأ للبارودى شيئاً من ذلك ؟ الجواب واضح جداً، انه لم يحس بالغربة وهو في الاستانه لأنه بين قومه الاتراك . وفي حاضرة الامبراطورية العثمانية التي ينتمي اليها

(١) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ١٥ .

بالمواطنة والولاء معا . ولكن ما امر اختلاف اللغة ؟ الم يحب اللغة العربية ، التي طالما عبر بواسطتها عن احاسيسه ورغائبه ؟ الجواب عن ذلك واضح وبين . اليست اللغة التركية هي الاخرى وسيلته لذلك ، بالاضافة الى انها لغة النشأة والتخاطب في البيت ؟ وربما سأل سائل وما الامر في عدم حنينه الى اهله ؟ الجواب واضح ايضاً . البارودي ليس رجلا عاطفياً فهو في الاستانة يسعى للوصول الى هدفه ، بعد أن اعياه الوصول في القاهرة ، وربما وجد بين اخواله الاتراك حنانا يغنيه عن حنان الام والاخت والاقارب ، بل لقد وجد شيئاً أثمن من ذلك كله ، الحرية ، ان يعيش لنفسه ساعياً وراء حاجاته اليس من حقه ذلك ؟ الم يكن في عنفوان شبابه ، وهو يعبر عن كل ذلك في ابيات تصور دواخله آنذاك :

تغرب اذااتربت (١)والتمس الغنى ... فما العزّ الا من وراء التعسف
فقد يعدم الانسان في عقر داره ... مناه ويلقى حظه في التطوف
فكل مكان يضمن الرزق للفتى ... اذا لم يكن فيه عديم التصرف(٢)

اذا فهو في بداية سعيه ، انه يريد ان يضع قدمه فقط . فاذا ما استند الى الارض وثبت قدمه فيها،وبدا يخطو خطواته الاولى ، اختلفت نظرته عندئذ ، فهو يريد ان يجمع كل اقاليم الحياة بين كفيه .

فخذ لنفسك من دنياك ما سمحت ... به اليك وكن منها على حذر
وسالم الدهر تسلم من غوائله ... فصاحب الشر لاينجو من الكدر
لايبلغ المرء ما يهواه من أرب(٣) ... الا بترك الذي يخشاه من ضرر
فانعم وطب واله واطرب واسع واعل وسد ... واشرب وغن وته والعب وهم وطر(٤)

والبيت الاخير تتجسد فيه آمال الشاعر العريضة . فهو يسعى الى السيادة

---

(١) اتربت : افتقرت .
(٢) ديوان البارودي، ج٢، ص ٢٥٧ .
(٣) الأرب : الحاجة .
(٤) ديوان البارودي، ج٢، ص ٧٧ .

وعلو الكعب . كما يسعى الى اللهو والشراب والمتعة . انه يريد ان يتربع على عرش الحياة ، يمسك بصولجان السلطة باليمين ، ويقبض على متع الحياة بالشمال . فهو اسعد مايكون عندما يشرب كأس الحياة دهاقاً ، وصولجانه يرتفع الى سماك السماء .

وهو يعرف الطريق لتحقيق اهدافة ، فهل هناك غير المغامر ة ؟ (١)

فاقذف بنفسك في اقصى مطالبها ان النجاح بسعي المرء مرتبط
قد يظفر الفأتك(٢)الالوى(٣)بحاجته وليس يدركها الهيابة(٤) الخلط(٥)
لاتغفلن اذا امنيـة عـرضـت فانما العيش في هذا الورى لقط(٦)

وقد الزم نفسه بما قال ، طالما يلوح له بريق الوصول . فهو يغامر ويرمي بنفسه في المعمعة ، طالما تأكد من الخروج بالغنيمة . وهو لايرضى بالغنيمة البخسه فطلابه بعيد دائما .

جردت نفسي لطـلاب العلا والسيف لايرهب او ينتضى
ولي من القول نصير اذا دعوته في حاجة او قضا (٧)

وقد كان القول نصيرة فعلا في طلاب العلا . فقد اعد قصيدة وهو في الاستانة يستقبل بها الخديو اسماعيل ، الذي قدم الاستانة ليقدم الولاء للسلطان عبد العزيز عندما تسلم عرش مصر .

ابو المجد نجل الجود خال زمانه اخو الفخر اسماعيل خدن المكارم
تجمع فيه الحلم والبأس والندى فليس له في مجده من مزاحم
فلو مصر تدري ارسلت لك نيلها ليلقاك في جنح من الليل قاتم

---

(١) « ولم يبال بركوب البحار فرحل الى الاستانة يلتمس بها منصباً » جرجي زيدان ، بناة النهضة العربية، ص ٤٦ .
(٢) الفاتك : الجرىء .
(٣) الالوي : الجدل ، الشديد الخصومة .
(٤) الهيابة : المتردد .
(٥) الخلط : الاحمق .
(٦) ديوان البارودي، ج٢، ص ١٦٥-١٦٦ .
(٧) الديوان : ج٢، ص ١٥٩ .

وجاءت لك الاهرام تسعى تشوقاً إلى دار قسطنطين سعي النسائم (١)

وهي القصيدة الوحيدة التي نظمها في الاستانة (٢) حسب علمنا .

« واختارت نظارة الخارجية التركية محمود سامي البارودي ليكون ضمن بعثة الشرف التي ترافق اسماعيل عزيز مصر اثناء اقامته بدار الخلافة...(٣) واعجب الخديوى ببراعته في الخط والانشاء التركي (٤) فقربه اليه مما جعل البارودي يلهج بالثناء عليه، فقدم نفسه اليه شاعرا مصريا من رعاياه، واهدى اليه قصيدة جعلته خير الملوك في دار الخلافة..وعينه معينا لاحمد خيري باشا على ادارة المكاتبات بين مصر والاستانة العلية » (٥) .

انها البداية التي باشرها البارودي صعدا لتحقيق آماله ، فهو يسير وفق خطة وضعها لنفسه . واذاعها كحكمة يدعو الآخرين إلى العمل بها . اذا ارادوا النجاح في الحياة .

بـادر الفرصة واحذر فوتها فبلوغ العز في نيل الفرص

فهو يعود إلى ديدنه في اغتنام الفرص . لانه يرى ان بلوغ العزلا يمكن الوصول اليه الا عن طريق احتيال الفرص . وهي سنة كان يتبعها معاصروه من اجل الوصول إلى اهدافهم :

واغتنم عمرك ابان الصبا فهو ان زاد مع الشيب نقص
فابتدر مسعاك واعلم ان من بادر الصيد مع الفجر قنص
لن ينال المرء بالعجز المنى انما الفوز لمن هم فنـــص(٦)
يكدح العاقل في مأمنـــه فاذا ضاق به الأمر شخص(٧)
ان ذا الحاجة مالم يغترب عن حماه مثل طير في قفص

(١) الديوان ج ٣، ص ٢٩٨-٣١٤ .
(٢) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٨٠ .
(٣-٥) الحديدي، ص ٤٤ من مذاكرات الاسرة الخاصة والجوائب : العدد : ٥٧٢، في ١٥/١٢/١٩٠٤.
(٦) النص : الحركة والاستقصاء .
(٧) شخص : ارتحل .

قد يضر الشيء ترجو نفعه رب ظمآن يصفو الماء غص
ميز الاشياء تعرف قدرها ليست الغرة من جنس البرص(١)

لقد اشتد ساعد الفتى واصبح يدرك مواطن النفع ،فحث خطاه حثيثا لاغتنام الفرصة مع أول بوادرها ، خشية ان يقتنصها غيره .

ترى هل انتهت آمال البارودي في الوصول إلى مايصبو اليه أم بدأت؟ انها بدأت ولاشك فقد « عاد وفي اعطافه آمال كبار بعد ان هدته المقادير إلى اقصر الطرق لتحقيقها » . (٢) ونظم البارودي وهو في مصر قصيدة ثانية مدح بها الخديو اسماعيل اعترافا منه بمعروفه الذي غمره به فقد رده إلى اهله عزيزا مكرما وطمأن له مستقبله بعد ان كان يسعى لتحقيق مثل هذا الهدف دون جدوى (٣)

البارودي في خدمة الاسرة الخديوية :

في تموز ١٨٦٣ منح البارودي رتبة « البكباشي» العسكرية والحق بالآى الحرس الخديو وعين قائداً لكتيبتين من فرسانه (٤) وهكذا حقق البارودي امنية كانت تبدو حلماً بالنسبة له ، انه الآن يختال بالزي العسكري الذي كان كان يختال به ابوه ، انه الهدف الاول الذي حققه ، فتفانى في اظهار قدرته وبراعته في الامور العسكرية ، وراح يتصدر الصفوف وارسل مع خمسة عشر ضابطاً إلى فرنسا وانكلترا لتعلم فنون الحرب هناك . وقد افاد من مشاهداته في تعلم فنون القتال والتدرب على الاسلحة الحديثة . وعاد ليرقى إلى رتبة (قائمقام) عام ١٨٦٤ ، ثم إلى رتبه (أمير آلاى) ووكلت اليه قيادة الفيلق

(١) الديوان ج ٢، ص ١٥٠-١٥٢ .

(٢) الحديدي، ص ٤٥ يقول ميكافيللي في كتابه (الامير)، ص ٩١-٩٢ « وهؤلاء يعتمدون في حياتهم الجديدة على ارادة من رفعوهم ويعقلون حظوظهم بحظوظهم وارادة الرجال وحظوظهم كثيرة التقلب ولاثبات لها » .

(٣) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٨٥-٨٦ .

(٤) « فترقى في سنة واحدة إلى رتبة بيكباشي » جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشوق، ص ٩٥" وكانت ظفرة كبيرة اذا ما قسناها بالتدرج الوظيفي في رتب الجيش آنذاك .

الرابع من الحرس الخديو عام ١٨٦٥ . لقد تقدم الشاعر تقدما سريعاً في اربع سنوات ووصل إلى مرتبة عالية ومركز مرموق ، وحياة رغدة سعيدة وحمد للمغامرة فضلها . وبقيت فكرة اغتنام الفرص الحكمة الوحيدة التي يعمل بها للوصول إلى مطامحه . ألم يرتق إلى رتبة عالية في الجيش في غضون فترة قصيرة لايمكن ان يصلها غيره الا بجهد سنين طويلة ؟ اذا فهو يمتلك قوة خارقة تفوق قوة البشر العاديين . قوة تؤهله لأن يكون في مصاف عظماء الناس وملوكهم .. أليس ذلك من حقه مادام يملك اعنة الملك ، من حسب ونسب وشجاعة وفصاحة ومقدرة .

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة تفل شباة(١) الخطب وهوعسير
معودة الا تكف عنانها عن الجد الا أن تتم امور
لها من وراء الغيب اذن سميعة وعين ترى مالايراه بصير

الاترى في هذا البيت الاخير غرراً لايجارية غرور، فهو ينزل نفسه منزلة اعلى من منزلة البشر. انها منزلة الاصفياء والانبياء الاترى انا النداء يأتيه بالتبصر من وراء الغيب ، وانه يرى أبعد مما يراه المحنكون والمجربون وسديدو الرأي .

واني امرؤ صعب الشكيمة(٢) بالغ بنفسي شأوا ليس فيه نكير
وفيت بما ظن الكرام فراسة بأمري ، ومثلي بالوفاء جدير

أما الكرام الذين أحسنوا الظن به عن فراسة صائبة لاتميل ، فهو دائماً عند حسن ظنهم . انه لم يصرح باسم اسماعيل ، فهو الذي تغرس فيه النفع والمقدرة فهو كأي انسان حصيف ، صائب في فراسته .أما البارودي فهو أرقى من اسماعيل مقدرة ان الامور التي يتمها توحى اليه من وراء الغيب. لذا فهو يمتلك قدرات لايستطيع أن يصل اليها اسماعيل خديو مصر ،وليس هذا فقط.

إذا صلت كفّ الدهر من غلوائه(٣) وان قلت غصّت بالقلوب صدور

---

(١) الشباة: حد السيف .
(٢) الشكيمة: الطبع .
(٣) الغلواء: الشدة ومجاوزة الحد .

انه ليس متنبئاً فقط ، بل هو فارس خرافي ، انه هرقل أو اخيل أو ادوسيسوس. فإذا ماوثب في القتال وصال وجال ، حبس الأبطال انفاسهم خوفاً وذعرا . وليس هذا فحسب :

ملكت مقاليد الكلام ، وحكمة ... لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى ... لباء (١) بفضلي جرول(٢) وجرير
ولو كنت ادركت النواسي لم يقل ... أجارة بيتنا ابوك غيور
وما ضرني اني تأخرت عنهم ... وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أوّل ... وبذّ(٣) الجياد السابقات أخير (٤)

فهل يصل انسان إلى ما وصله البارودي من غرور؟ انه لم يكتف بسماع المخفي وراء الغيب ولا بالصولة على الدهر ، بل هو الآن يتوهم بأنه قد سبق أبا نؤاس وجريرا والحطيئة . ثم ماذا ؟ هل هو يطلب المحال فيتوهم في نفسه المحال.

ألم يأن للأيام أن تبصر الهدى ... فتخفض مأفونا(٥) وترفع جهبذا (٦)
إذا لم يكن بالدهر خبل لما غدا ... يسير بنا في ظلمة الجور هكذا (٧)

إن الدهر مخبول ، لايعرف قيمة البشر والأشياء من حوله . انه يقرر هذه الحقيقة التي ستستولي عليه بعد فشله في تحقيق ثأره الطموح ، مادام الدهر يخفض الجهد ويرفع المأفون ، مادام لم يحقق له بغيته في الملك ، ويبقي الاسرة الخديوية متمثلة في توفيق حاكمة لمصر .

وعلى الباحث ان يقف هنا ليتبين ماالسبب في هذا الغرور الذي يصل احياناً

(١) باء : اقر واعترف .
(٢) جرول : الحطيئة .
(٣) بذ : سبق .
(٤) الديوان : ج ٢ ، ص ٢٢-٢٣ .
(٥) المأفون : الضعيف العقل والرأي .
(٦) الجهبذ : النقاد الخبير .
(٧) الديوان ج ١ ، ص ٢٢٢ .

حدا كبيراً ، في الا بيات الشعرية السابقة . يعود ذلك ولا شك الى احساسه بالعظمة والمقدرة الفائقة في السيف والقلم . فقد نصبته امه رجلا للبيت ، وهو مازال طفلا ، ولقنته دروساً في العظمة والمجد . وقصت عليه بطولات الاسرة لتشحذ في نفسه دوافع الوصول الى المجد . كما كان لاحساسه باليتم، الأثر الكبير في ايجاد التعويض عن هذا الحرمان من الابوة ، هذا بالاضافة الى تأثره بشعر الشعراء والفرسان الذين كانوا يبالغون في فخرهم بأنفسهم وانزالها منزلة كبيرة تتناسب وشجاعتهم وقدرتهم الفائقة في القتال . فتقمص البارودي في خياله الأدبي صورة الشعراء الفرسان القدماء . والخيال الشعري نابع من مخيلة الانسان . لذا يلجأ (كارل يونج) في تحليلاته النفسية لمرضاه ، الى اهداف المستقبل التي تصطرع في نفوسهم لاالى تجارب الماضي. ويرى ان الوضع الآني للفرد بالاضافة الى اهدافه في الحياة هو المفتاح ، الذي يلج منه الى المرض النفسي ، الذي يعاني منه صاحبه .

ويؤكد يونج ان السبب المباشر في زيادة الحساسية ، هو صعوبة التكيف بين الا نسان والحياة . وسبب ذلك ، ان أداة التكيف اللازمة غير كافية لمجابهة الموقف ، والنتيجة لتسلط فكرة معينة على المصاب ، فلم يستطع ان يكيف فكره وشعوره واحاسيسه لمجابهة ذلك الموقف . فالبارودي لايستسيغ ان يكون تابعاً لفرد من افراد الا سرة الخديوية ، تلك الاسرة التي له عليها ثأر لايغسله غير الدم . ولكنه يدرك في الوقت نفسه ، ان الفرصة لاتواتيه الاّ اذا سار في ركاب هذه الاسرة . ومن هنا نشأ التناقض الكبير لديه ، بين اللاشعور الذي يفرض عليه ان يسير في ركاب اسماعيل ، لانه الممثل الرسمي للاسرة الخديوية ، القاتلة في نظره ، وبين ادراكه الذي يحتم عليه ان يسير في ركاب اسماعيل ، لان طريقه هو الوصول الى الهدف ، والمنصب والجاه، ومن ثم المخاتلة لتحقيق الهدف . وسنرى انه سيلعب لعبة مزدوجة لتحقيق

اهدافه ، بين اسماعيل وتوفيق من ناحية ، وحركة الضباط الاحرار التي يترأسها عرابي والشعب المطالب بحقوقه من جهة أخرى . (١)

وهكذا مضى البارودي يصعد الدرجة تلو الدرجة ، لتحقيق مطامحه . فقد شبت في جزيرة كريد ثورة ضد الحكم العثماني ، ولم تستطع الدولة العثمانية اخمادها . فاستعانت بالجيش المصري . وكان ضمن الحملة المصرية « آلاي من فرسان الحرس يقوده محمود سامي البارودي بوظيفة رئيس ياور حرب ».(٢)

وابلى البارودي في الحرب بلاء حسناً ، كيف لا وهي فرصته العظيمة التي يحقق فيها هدفين معاً : اشباع رغبته الخاصة في خوض الحروب متمثلا في نفسه والده واجداده من ناحية ، ومقتدياً بالشعراء الفرسان الذين طالما اعجب بهم ، وهو يقرأ شعرهم وسيرهم من ناحية أخرى . هذا بالاضافة الى تحقيق الممارسة الفعلية التي يعتقد في لاشعوره ، انه سيخوضها ، ان عاجلا أم آجلا للوصول الى بغيته . كما ان شجاعته وقدرته في ادارة المعركة يعدان وسامي شرف يقودانه خطوة اكبر عند اسماعيل . ومن ثم يقودانه لارتقاء درجات جديدة في سلم المناصب . « واجل مايذكر له في تلك الوقائع واقعة احتال بها على الثائرين حتى ادخل منهم نحو الثلاثين الفاً في مضيق بين جبلين وقطع عليهم الرجعة بقسم من عساكره ، وسلط القسم الآخر نيرانه على العدو من قلعة الجبل ، فألقوا السلاح وطلبوا الأمان وساقهم اسرى » . (٣) وتثبت هذه الحادثة قدرته وسعة حيلته في الحروب .

---

(١) « اذا اردت ان تريح نفسك من رجل فاعمد إلى احد طريقين الأولى ان تملقه وتحسن اليه والثاني ان تخمد انفاسه وتنتهي من امره ... وفي طبيعة البشر عادة تساعد على تقرير تلك القاعدة وهي انهم يحاولون دائما ان ينتقموا من اعدائهم لماينالهم من الاضرار التافهة ... فخير وسيلة لمن يريد ايصال الاذى الحقيقي بعدوه ان يصب عليه من جام غيظه قدراً يعجزه عن الانتقام » ميكا فيللي ، ص ٦٣ .

(٢) الحديدي ، ص ٤٧ ، عن مراثي الشعراء ، ص ٩ .

(٣) الحديدي ، ص ٤٨ عن الجوائب العدد : ٥٧٢ في ١٩٠٤/١٢/١٥ .

عاد البارودي مظفرا الى مصر « ومنحته الدولة العثمانية وساماً من الدرجة الرابعة اعترافاً بحسن بلائه » (١) وهكذا حقق البارودي الصورة المرسومة في خياله للفارس العربي القديم ، تلك الصورة التي طالما تشبثت بخياله ولم تفارقه ، وكانت شعراً يعبر عن حنايا نفسه :

من صاحب العجز لم يظفر بما طلبا ... فاركب من العزم طرفاً يسبق الشهبا
لايدرك المجد الا من اذا هتفت ... بـه الحمية هز الرمح وانتصبا
يستسهل الصعب ان هاجت حفيظته ... ولا يشاور غير السيف ان غضبا
ينهـل صارمه حتفاً ومنطقه ... سحراً حلالا اذا ماصال او خطبا
ان حلّ ارضاً حمى بالسيف جانبها ... وان وعـى نبأة من صارخ ركبا
فذاك ان يحيى تحيى الارض من رغد ... وان يمت ينقلب صدق المنى كذبا
فاحمل بنفسك تبلغ ما أردت بها ... فالليث لايرهب الاخطار ان وثبا(٢)

من يقرأ هذه الابيات يجد فيها روح الشعراء العرب الفرسان . فالشاعر يحذو حذوهم وهو ينفث مافي نفسه ، وكثيراً مايتقمص عنترة ، الذي اعجب بشخصه كل الاعجاب . اقرأ هذه الابيات ، تجدها نفساً من معلقة عنترة وهو يصف بلاءه في القتال :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الارض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لايفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها ... واني صبور ان ألمّ بي الخطب(٣)

عاد البارودي من حرب كريد ، لاليرتقي في رتب الجيش ، بل ليكون ياوراً خاصا لاسماعيل ثم كبير الياورن لولده توفيق ولي العهد ثم سكرتيرا خاصا لاسماعيل عام ١٨٧٥

(١) شوقي ضيف البارودي رائد الشعر الحديث ، ص ٥٨ .
(٢) الديوان ج ١ ، ص ٥٢-٥٣ .
(٣) الديوان ج ١ ، ص ٥٢-٥٣ .

قضى البارودي ثماني سنوات في قصور اسماعيل ، الذي اولع ببناء القصور وجلب لهذا الغرض افضل المعماريين الاوربيين . والتقى بالحسان من النساء ، وقضى لياليه في حفلات البلاط التي كانت تقام في الحدائق الفناء التابعة للقصور الفخمة . وكانت لياليه تلك اشبه بالليالي الاسطورية التي جاءت الف ليلة وليلة على ذكرها ، « فألوف الجواري الحسناوات والوصيفات الجميلات والقلفاوات المثقفات والشاويشات المهذبات ثم فريق الراقصات والمغنيات والممثلات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية والوترية يستوردهن من اوربا وتركيا وبلاد الجركس عملاء يسرجية ويدربونهن على العمل في هذه القصور وكانت زوجات الخديو الاربع يتنافسن في اقتناء الجواري وارشق الوصيفات حتى ينلن الحظوة لدى اسماعيل » (١)

في هذا الجو المترف بالاجساد والمغاني والمشارب تفتحت نفس البارودي . كما لم تتفتح من قبل على اطايب الحياة . فاسرف في امتصاص الحياة ، كما اسرف في الغزل ، ووصف الخمرة ، ومجالس الانس ، والفخر بنفسه واخلاقه وشجاعته وقدرته على اجتياح قلوب العذارى ، وقدرته في عبّ أكؤس الصهباء مترعة ، واذا به ينسى مثالية الصبا ليندفع الى مادية الشباب ، فها هو يقول :

اذا المرء لم يطرب الى اللهو والصبا فمـا هو الا من عداد البهائم (٢)

وهو لايكتفي باثبات بشريته وارتفاعه عن مستوى البهائم ، مادام ينعم بلذاذات الحياة ، بل هو يفخر بأنه وصل في هذا المضمار سبيلا لم يصله احد من قبله :

عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل واغضبت في مرضاة حب المها عقلي
ونازعت ارسان البطالة والصبا الى غاية لم يأتها احد قبـلي (٣)

(١) الحديدي ، ص ٦٢-٦٣ .
(٢) الديوان ج ٣ ، ص ٤٢١ .
(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٧٤-٧٥ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

فما أمسي كيومي حين اغدو على كبر وما يومي كأمسي (١)

ويقول في قصيدة اخرى :

متى انت عن احموقة الغي نازع وفي الشيب للنفس الابية وازع
الا ان في تسع وعشرين حجة لكل أخي لهو عن اللهو رادع
فحتام تصبيك الغواني بدلها وتهفو بليتيك(٢) الحمام السواجع
أمالك في الماضين قبلك زاجر يكفك عن هذا؟ بلى انت طامع
وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا اذا لم تهذب جانبيه الوقائع ؟(٣)

وهو يكشف في هذه القصيدة عن طموحه ، ويسفر عن وجهه . ويجد له العذر في مهادنة حاشية الخديو :

أعاشرهم رغما وودي وان لي بهم نعما ادعو به فيسارع

ويدعو الشعب الى ثورة تطيح بالحكام ، وهو عمل يحمد عليه الشاعر ويدل على رفضه لحكم العائلة الخديوية الفاسد ، ويسعى الى ايجاد البديل لهذا الفساد وهو يعلم ان الثورة لاتتم الا بمؤازرة الشعب واندفاعه التام لأجل تحقيقها :

فيا قوم هبوا انما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنافع
أصبرا على مس الهوان وانتم عديد الحصى ؟ اني الى الله راجع
وكيف ترون الذل دار اقامة وذلك فضل الله في الارض واسع
أرى أرؤساً قد اينعت لحصادها فأين — ولا أين — السيوف القواطع
فكونوا حصيداً خامدين اوافزعوا الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع (٤)

---

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٤٠-١٤٢ .

(٢) الليتان : صفحتا العنق .

(٣) الديوان : ج ٢ ، ص ١٧٩-١٨٨ .

(٤) يقول ميكافيللي في كتابه الامير ص ٨٢-٨٣ « اذا كانت البلاد متعودة حكم أسرة مالكة فهلاك تلك الاسرة يسهل ... امتلاك البلاد لانها مفطورة على الطاعة ولانها تبحث عن امير لها بعد هلاك الاسرة المالكة فلا تجد ، ويصعب عليها ان تختار اميراً من الشعب لما يكون عادة بين الافراد من التنافس ... فيتمكن أي امير حاذق من الاستيلاء عليها» وهذا ما كان يحلم به البارودي من اثارة الشعب ضد اسماعيل وحكمه الفاسد .

ترى ألم يسمع الخديو اسماعيل بتحريضه الشعب ضده ؟ فلماذا ابقاه في معيته ؟ ولماذا لم يعاقبه ؟ وكان في امكانه ان يبطش به. أم ان الخديو اسماعيل كان مطمئنا كل الاطمئنان لأخلاص البارودي ، وتفانيه في خدمته ، والا لما وثق به كل الثقة واولاه مناصب مهمة في الدولة :

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة اليّ ولبّاني الصدى وهو طائعُ

انه يدين الشعب المستكين الذي لم يستجب لندائه . ولم يلق غير صدى ثورته . وهو اذ لم يحقق هدفه في ثورة الشعب ضد حكامه يرميهم بالصمم وعدم الاحساس ، ويسخر منهم ، ويشبه قلوبهم بالزجاج لضعفها :

فلم ادر ان الله صور قبلكم تماثيلَ لم يخلق لهن مسامع
فلا تدعوا هذي القلوب فانها قواريرُ مخنيّ عليها الاضالع

وهو بعد ان يمتدح قصيدته يشبه تأثيرها بتأثير القرآن الكريم ، وهو اقصى مايمكن ان يبلغه الغرور :

الا انها تلك التي لوتنزلت على جبل اهوت به وهو خاشع

وقوله هذا قريب من قوله تعالى : « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » . (١) والشاعر هنا مبالغ متطاول الى عظمة القرآن ، فكيف بالجبل ان يتصدع من تأثيرها ، في الوقت الذي لم تؤثر في قلوب الناس الزجاجية ؟ وكيف تسير بها الركبان ، في الوقت الذي لم يستمع اليها الناس ولم يستجيبوا لها ؟ « تماثيل لم يخلق لهن مسامع » .

تسير بها الركبان في كل منزل وتلتف من شوق اليها المجامع (٢)

ان ثورة البارودي بهذا الشكل العنيف تستحق التأمل والدراسة . فقد كان من الطبقة المرفهة التي تمتلك في يدها مقاليد الامر والنهي . وكان صهراً للاسرة الخديوية . فقد تزوج من ابنة (احمديكن) ابن اخت محمد علي ولم يكن من الطبقة المسحوقة التي عانت الامرين من نظامي الضرائب والسخرة .

(١) سورة الحشر الآية ٢١ .
(٢) الديوان : ج ٢ ، ص ١٧٩-١٨٨ .

وقد كان البارودى من بطانة الخديو اسماعيل فقد اتخذه سكرتيرا وحارساً وياورا . يتنقل بقلبه وجسده حيث يشاء بين الحسان . ولم يحس عرضه بأذى كما حدث للمستضعفين من الناس . وقفز في الرتب العسكرية قفزا سريعاً وتوصل إلى مناصب كبيرة كان شديد الطموح لنيلها . ولم يعان من هظم الحقوق في الرتب العسكرية كما عانى عرابي ورهطه . فقد كان من الضباط الجراكسة الذين حظوا بنعم الخديو والامتيازات التي منحهم اياها . ورفل بالنعيم والجاه والثراء .

فلماذا هذه الثورة العارمة ضد ولي نعمته اسماعيل ؟

لايشك احد بان البارودي كان يملك نفساً حساسة شاعرة ابية تستنكر الظلم والاستبداد . وقد كان اسماعيل حاكماً مستبداً . و من هنا جاءت ثورة البارودي ضد حكم اسماعيل وبطانته وقد ساعده على الثورة ثقافته العالية واطلاعه على ما كتبه فلاسفة الثورة الفرنسية وما عرضوه من اسس الديمقراطية ونظام الحكم السليم : كالحرية الفردية والعدل والمساواة والمجالس النيابية وما شاهده في انكلترا وفرنسا عند سفره اليهما من الرقي والتقدم بسبب انظمة الحكم السليمة والتفاف الشعب حول حكامه . كما تأثر بما قرأه في كتب التاريخ العربي عن نظام الشورى واثره في تقدم العرب وتطورهم منذ ظهور الاسلام . وكان اسماعيل قد حل البرلمان واعتمد في حكمه على الطبقية وكبت الحريات وارهاق الشعب بالضرائب واعمال السخرة . فأثار ذلك في نفس البارودي الابية الكره لاسماعيل . وهذا الكره ليس وليد ساعته بل هو كره متأصل في اعماق البارودي تجاه الاسرة الخديوية برمتها نتيجة لمارسخ في نفسه منذ طفولته حينما كانت امه تروي مظالم هذه الاسرة وقتلها لجديه وابيه . فتجمعت سحب الكره في نفسه بعضها يثير البعض الآخر هذا بالاضافة إلى ان البارودي كان يجد نفسه افضل من اسماعيل وولي عهده توفيق واحق منهما بالحكم . اذا ماقارن نفسه بهما . فهو بالاضافة إلى أصلة

الكريم . وتسنم احفاده مقاليد الحكم في مصر في عهد المماليك وشجاعتهم في الحروب الصليبية . فهو رب السيف والقلم ، الشاعر الذي رددت الاندية شعره كما رددت مفاخره وبطولاته في حربي كريد والقرم .

وهو اوسع ثقافة وولي عهده واكبر ايماناً بالديمقراطية منها وبوسائل الحكم التي تكفل للامة التقدم والازدهار . على العكس من اسماعيل الذي قاد بلاده إلى هاوية الافلاس بطيشه وكبلهابقيود المصارف الاجنبية وسمح للانكليز والفرنسيين التدخل في شؤون مصر الداخلية .

الا يكفي كل ذلك لثورة رجل كالبارودي . الشديد الطموح فانبعثت صرخته مدوية تكشف عن غضبه العارم ودعوته الصادقة في الثورة على الظلم . ولكن كيف سمح اسماعيل بذيوع القصيدة ؟ لابد ان امرها قد بلغه .. وحساد البارودي كثر كما يفصح هو بل انه يؤكد ادانتهم :

فمنها لقوم او شح وقلائد وفيها لقوم آخرين جوامع(١)

فهل خدع اسماعيل افهمه بأنها ليست ضده ؟ وكيف يستسلم اسماعيل لخداعه ، إلا اذا كان أحمق ؟ وهو ليس كذلك . واما أن ثقته بالبارودي كانت كبيرة ، بحيث لم يعر هذه القصيدة التفاتا . ولا تأتي الثقة إلا عن طريق ادلة وبراهين في الأفعال والأقوال . أما من ناحية الفعل ،فالبارودي كما كان يبدو في الظاهر خادم أمين لاسماعيل وابنه توفيق ، عندما عمل معهما ، والا لما أبقاه في خدمته ورقاه في سلم المناصب. أما في مجال القول . ترى هل نظم البارودي القصيدة في مدحهما ولم يصلنا هذا المديح . لأن البارودي اتلف مثل هذه القصائد ،بعد عودته من منفاه وتجميعه لقصائده التي ضمها ديوانه؟ تلك هي الحقيقة في الغالب .خاصة وان اسماعيل عندما ضمه الى حاشيته . كان بسبب القصيدة التي مدحه بها في الاستانةوالتي لم يضمها الديوان ايضاً واغفالها(٢)

(١) الديوان، ج ٢، ص ١٨٨ .

(٢) في الطبقة الثانية غير موجودة .

والا لما سكت اسماعيل عن تحريض الشاعر للشعب وتهديده لملكه .أم ترى أن هذه القصيدة لم تكن تضم الأبيات التي تدعو الى ثورة الشعب وادخلها فيها ، بعد أن اعد الديوان وجمعه بعد عودته من منفاه، بين عام ١٩٠٠ و١٩٠٤ . وقد عرف عن البارودي أنه عدّل في بعض قصائده وغير فيها . وخاصة تلك التي نشرها المرصفي في كتابه (الوسيلة الأدبية) قبل ظهور الديوان (١) فعندما ظهر الديوان، ظهر الاختلاف كبيراً بين الأصل القديم المنشور وبين الصورة الجديدة للقصيدة التي ظهرت في الديوان .كما في قصيدته التي مطلعها .

أبى الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير (٢)

وكان مطلعها :

تلاهيت الا ما يحنّ ضمير وداريت الا ما ينمّ زفير (٣)

ويؤكد الباحثون ظاهرة التعديل والتبديل عند البارودي. يقول شوقي ضيف: « وكان البارودي مع ذلك لايزال يراجع ماينظمه ويعود اليه بالصقل والتنقيح ويغير ويعدل فيه»(٤) وكتب لنا فصلا كاملا مستدلا بأمثلةوشواهد على ذلك(٥).

ويقول هيكل في مقدمة الديوان « فإذا خلا إلى نفسه ،بعد عودته من المنفى رتب مختاراته وعني بتنقيح ديوانه يريد اعدادها للطبع . . . واصول الديوان تشهد بهذا المجهود فانت ترى الأبيات التي حذفها من بعض القصائد والأبيات الأخرى التي غيرها كلها أو بعضها ... » (٦) أم لأنه كان صهراً للأسرةالخديوية. فهو قد تزوج«من ابنة أحمد يكن ابن اخت محمد علي»(٧) فلم يلتفت الى قوله مادام واحدا من الاسرة ولا يعقل انه يريد هدمها ؟

---

(١) حسين المرصفي، الوسيلة الادبية، ص ٤٧٤-٥٠٣

(٢) الديوان، ج ٢، ص ١٦-٢٣ .

(٣) الوسيلة الادبية، ص ٤٧٧-٤٧٩ .

(٤، ٥) شوقي ضيف، البارودي، ص ١٢٨-١٤٠ .

(٦) محمد حسين هيكل ، مقدمة الديوان، ص ذ - ض .

(٧) الحديدي ص٧٩ .

أو اكتفى اسماعيل بتأنيب صهر الاسرة . وما موقف زوجته وعمه — والد زوجته — هل سكتا على موقفه ذاك .أم انبآه ؟ أم توسطا له عند الخديو اسماعيل .ووعداه ألايعود اليها ثانية ؟ كل هذه الأسئلة تثار حول هذا الموقف الغامض الذي كان يكتنف البارودي .فقد كان من الاولى به ألا يبقى في حكومة مشبوهة مثل تلك كما صورها.أو على الأقل ،كان عليه ألا يبقى تابعا(ياورا وسكرتيراً) لاسماعيل رئيس تلك الحكومة . ان بعض الدارسين للبارودي اكـــدوا طموحه في قلب نظام الحكم للوصول اليه (١).

وتخبرنا الأحداث ان اسماعيل كان يثق بالبارودي في تلك الفترة بالذات فيرسله مبعوثاً عنه إلى الاستانة ليقدم رسالته الى السلطان ، راجياً منه ان يقبل اعتذار مصر ويعفيها من المشاركة في اخماد ثورة الهرسك وبلاد الصرب عام ١٨٧٥ . ثم يرسله ثانية ليقدم رسالة إلى السلطان ، تختص بالفتنة البلغارية وخروج الجبل الاسود على تركيا عام ١٨٧٦ (٢) ؛ ثم يرسله اسماعيل قائداً من قواد الحملة المصرية لمساعدة تركيا في الحرب الروسية التركية .

ويصف لنا البارودي الحرب والبلاد التي حل فيها ، والأدوات المستخدمة وقد امتلأ وصفه بالحركة والتجسيد ، تماماً كوصف عنترة المتحرك المجسد لساحة المعركة . أو كالصور التي كان يقدمها امرؤ القيس لحصانة وهي مليئة بالحيوية والنشاط . أو كالصور الشعرية الجميلة التي كان يقدمها بشار للحرب رغم عماه . فلو أخذنا قصيدته التي مطلعها :

هنيئاً لريا ما تضـم الجوانح وان طوحت بي في هواها الطوائح (٣)

لو جدنا أن حنينه الى (ريا) حنيناً تقليدياً ، لم يكن إلا مدخلاً لوصف الحرب حيث يقول :

مدافعنا نصب العدا ومشاتـنا قيام تليها الصافنات القوارح (٤)

---

(١) الحديدي ، ص ٧٩ ، ٨١ .

(٢) الحديدي ، ص ٨٤ عن كتاب مراثي الشعراء ، ص ١١ .

(٣) الديوان ج ١ ، ص ٨٩-٩٦ .

(٤) القوارح : من الخيل ما بلغ الخامسة من عمره .

ثلاثة أصناف تقيهن ساقة (١) حيال العدا ان صاح بالشر صائح (٢)

وقد كان حنينه الى مصر قوياً في القصيدة التي مطلعها :

اراك الحمى شوقي اليك شديد وصبري ونومي في هواك شريد(٣)

وفيها رغبة عارمة لقضاء العيد بين أهله . وقد وصف بها طبيعة(سرنسوف)(٤) التي تحولت الى جحيم لايطاق :

بلاد بها ما بالجحيم وانما مكان اللظى ثلج بها وجليد

ومما زاده وحشة واحساسا بالغربة تزاحم جيوش الروم والبلغار الذين لم يفهم من رطانتهم شيئا :

يخورون حولي كالعجول وبعضهم يهجن لحن القول حين يجيد

وقد يسأل يسائل : لما انسالت ذكريات القاهرة وايامها في هذه القصيدة ؟ ولماذا هذا التمني بالعودة إلى ارض مصر ؟ ولماذا لم نجد مثل ذلك الحنين عندما كان في استنبول مثلا ؟ علمنا فيما مضى من القول لماذا لم يأت على ذكر اهله وهو في استنبول فيما سبق .

وقد يسأل سائل : الم يحن إلى مصر وهو يقاتل في جزيرة كريد ؟ فهذا الحنين مثل ذلك الحنين . اقول ان حنينه إلى مصر وهو يقاتل في جزيرة كريد يختلف عن حنينه هذا . فهو في الاول يسرع في العودة . مفاخرا بالنصر الذي احرزه فهو يتوقع ان يوضع فوق رأسه تاج من الغار بعد ان حقق نصرا اكيدا يفاخر به ويشمخ إلى السماء زهوا . وقد كوفيء فعلا بوسام عثماني من الدرجة الرابعة انعم به عليه السلطان عبد العزيز (٥) . اما في روسيا فقد كانت المسألة جد مختلفة .

---

(١) ساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) الديوان : ص ٩٤ .

(٣) الديوان ج ١ ، ص ١٤١-١٤٥ .

(٤) مدينة في أوكرانيا واقعة على نهر الدنيبر .

(٥) محمد صبري ، شعراء العصر ، ص ١٨ .

فهي حرب خاسرة بالنسبة للدولة العثمانية (الرجل المريض) (١). وبالتالي هي غير مشرفة بالنسبة للحملة المصرية التي كان البارودي احد قادتها . هذا بالاضافة إلى الاحداث الجسام التي كانت تتجمع في مصر ، والتي كان البارودي يسعى لادلاء دلوه فيها . فقد كان يحس بحاسته السادسة ان احداثاً جساماً ستتمخض عن ذلك وان امله الكبير لايتحقق الا عن طريق ثورة تطيح بالاسرة الخديوية . فعليه اذن ان يكون قريباً من هذه الاحداث قريباً من البلاط ليحقق الطموح الذي عاش له ، ويستلم الحكم ويتأثر لابيه وجديه ، ويعيد مجد الاسرة التليد .

يعود البارودي إلى مصر بعد انتهاء الحرب التي خسرتها الدولة العثمانية عام ١٨٧٨ . ليجد « في مصر نصرا مؤزرا ، نصرا حققته الصحافة والادب في ايقاظ الرأي العام وتجميعه وتحريكه » (٢) . وكان سبب تلك الحركة سوء الحالة الاقتصادية . وعجز اسماعيل عن تسديد ديونه لانكلترا وفرنسا والافكار الاصلاحية التي اخذ ينشرها جمال الدين الافغاني وتلامذته من المصريين (٣) والوعي الديني الذي دعا اليه محمد عبده . ودارت في المجالس

(١) وقد « كوفيء برتبة امير لواء وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة ونيشان الشرف » محمد صبري، شعراء العصر، ص ١٩ .

(٢) الحديدي: ص ٨٩ .

(٣) يقول الحديدي في كتابه، البارودي شاعر النهضة: «وكأن الافغاني رأى بظهر الغيب ان للبارودي رسالة في وطنه ودوراً في سبيل تحرير امته ووجده على ثقة بنفسه في اداء الرسالة فقد تهيأ لها بنزعته وآماله واقتدر عليها بطموحه واستعداده » . ص ١٤١ .
وقد دخل الافغاني في الماسونية في اواخر ايام من عام ١٨٧٥ (علي الوردي، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ج٣، ص ١٧٦) ولكن الافغاني اختلف مع المحفل الماسوني التابع لانكلترا وانشأ محفلا ماسونيا تابعاً للشرق الفرنسي «ضم اليه عدداً كبيراً من اصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء وهو الذي استقدمه إلى مصر وتولى رعايته فيها واجرى عليه راتباً شهرياً واعد له مسكناً في خان الخليلي ويقال انه كان في حارة اليهود ... وفكر الافغاني بموافقه محمد عبده في اغتيال الخديو اسماعيل اثناء مروره على كوبري قصر النيل لان جمال الدين كان متفقاً على برنامج الحكم مع ابنه توفيق الذي كان قد نجح في ضمه إلى محفله الماسوني وقد اشترك من بعد مع نوبار باشا في السعي لعزل اسماعيل» محمد حسين، الاسلام والحضارة الغربية، ص ٧٩، ٨١ .

احاديث صريحة حول سوء الحالة السياسية والاقتصادية في مصر ، والقيت الخطب . ولكن احدا لم يتطرق صراحة إلى اسماعيل . فقد كان الجميع يخشون بأسه وجبروته . ويشارك البارودي في المعركة ، ويذكي المشاعر ضد اسماعيل دون ان يشير إلى اسمه في قصيدته التي مطلعها :

دع الذل في الدنيا لمن خاف حتفه فالموت خير من حياة على اذى(١)

وهو يدعو الاحرار إلى إتباعه والسير ورائه :

لعمري لقد ناديت . لو ان سامعاً ونوهت بالاحرار لو ان منقذا

ولكن إلى اين ؟ لم يحدد البارودي طبيعة المسيرة . ترى هل هي الثورة ؟ أم الاصلاح ؟ ويعود ثانية إلى لوم الآخرين لانهم كسالى خاملون :

وطوفت بالآفاق حتى كأنني احاول من هذي البسيطة منفذا

انه سعى إلى المجد من جراء تطوافه . فقد حقق طموحات عدة من جراء سفره إلى استنبول واشتراكه في حربي كريد وروسيا . ولكنه مازال يطلب المجد .

—وقد كانت مدرسته « الافغاني» الثانية النظامية فكانت اكبر أثرا واعم نفعاً وهي التي كانت يلتقى عليه فيها زواره في بيته وعظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم وخاصة المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله في قهوة البوسطة ... وفي هذه المدرسة تلقى دروسه امثال محمود سامي البارودي احمد امين ، زعماء الاصلاح ، في العصر الحديث ص٦٧ ، ويقول محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية هامش (١) ص١٣٥ :

« ومن المعروف ان جمال الدين الافغاني هو مؤسس الماسونية في مصر واند قد ضم اليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الاول في تهييج الناس ... ومن المعروف ايضاً ان بعض زعماء الثورة مثل البارودي كان ماسونيا وان المستر بلنت —وهو ماسوني —كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته » . وربما خدع الافغاني وتلامذته بظاهر الماسونية الداعية إلى افكار انسانية تحريرية ولم يكونوا على علم بنواياها الخبيثة وشرها المبيت .

وهناك رأي يؤكد ان الافغاني وبعض تلامذته تركوا المحفل الماسوني بعدان تأكد لديهم خطر الماسونية وسوء نواياها . انظر على سبيل المثال (الماسونية مؤامرة اخرى على الاسلام) لأحمد الشرباصي ، مجلة الهلال يونية ١٩٧٧ ص ٣٨ .

(١) الديوان : ج١ ، ص٢٢١ ج ٢٢٢ .

ومع ذلك يحتمل عدم تحقيقه فيصبر على كراهية وتبرم ومضض :

اذا ما رأيت الشيء في غيراهله ولم استطع ردا طرقت على قذى

ولكنه لم يطق بعد احتمال كتمان طموحه الاكبر . فهو يكلفه الشيء الكثير :

فحتى متى يادهر اكتم لوعة تكلف قلبي كلفة الريح بالشذا

ولكن لماذا لايبوح بمراده ؟ لماذا لايعلن عن طموحه ؟ فهل يخشى بطش اسماعيل ؟ انه يدرك ان ذلك محال . لذا يعود إلى التوسل بالدهر تارة ولومه تارة اخرى :

ألم يأن للايام ان تبصر الهدى فتخفض مأفونا وترفع جهبذا؟

اذا لم يكن بالدهر خبل لما غدا يسير بنا في ظلمة الجور هكذا

ولكن ترى لماذا سار في ركاب المأفون هذا ؟ ولم رضي بنعمه؟ ولم اصبح جزءا من جهازه الاداري ثم عضوا في حكومته ؟ هل هو الطموح ؟ او الامل بالوصول ؟ ثم ما بال اسماعيل لم يحرك ساكناً . بل على العكس اكرمه اكثر من ذي قبل . هل كان يخشى فتنته ؟ فالدلائل تدل على عكس ذلك تماماً ، فقد كان يثق به ثقة كبيرة . اذ عينه بعد عودته من الحرب الروسية مديرا للشرقية ، وبعد اربعة اشهر اعاده إلى القاهرة لينصبه محافظاً لها . وكانت مسؤولية البارودي في اسناد نظام الحكم المتداعي كبيرة جدا . فقد ثار الشعب لدخول وزيرين اجنبيين في الوزارة ، أنكليزي لوزارة المالية وفرنسي لوزاره الاشغال ، ولحل البرلمان المصري ،والقضاء على الروح الديمقراطية فيها . وثار الضباط المصريون لتسريحهم من الجيش ، وكانت كل من انكلترا وفرنسا تسعيان الى إقالة اسماعيل بعد ان اشترتا منه الاسهم المصرية لشركة قناة سويس . وفكرتا في الاحتلال العسكري للقناة ، حماية منها لما كانت تسميه (ممتلكاتها الخاصة). وبعد ان القى اسماعيل القبض على الضباط المتمردين جاء بهم امام البارودي محافظ القاهرة .

« وترك لقاء البارودي في نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة والاطمئنان اليه واتصل به علي الرومي سرا » (١) لقد اطمأن البارودي الآن فلا خوف عليه من اسماعيل ماداموا قد رأوا ان في«ابقاء علاقته بهم سرا ادعى لنجاح الحركة » . (٢) وهو في هذه الاثناء يعود الى نفس موقفه السابق ، من اثارة الشعب ضد نظام الحكم . فيتحدث عن فساد الحكومة وعن توانى الشعب دون ان يذكر اسم اسماعيل . وقد ذكرها شارحاً الديوان « وقال يذم سيرة الحكام ويحض الناس على طلب العدل في الاحكام . وذلك في عهد اسماعيل باشا خديو مصر ». (٣) على حين قال هيكل : انه قيلت في حكم توفيق وليس في حكم اسماعيل . (٤)

وهذا ما اراه صائباً فلا يعقل ان يغفر له اسماعيل مرة ثانية . وهو يكيل الذم والقدح برجال حكومته :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل في خلل
لم أدر ماحل بالابطال من خور ... بعد المراسي وبالاسياف من فلل
لايدفعون يدا عنهم ولو بلغت ... مس العفافة من جبن ومن خزل
هيهات يلقى الفتى أمناً يلذ به ... مالم يخض نحوه بحرا من الوهل

وهو يهيب بهم ان يبادروا إلى الثورة ومبادرة الفرصة خوف فواتها :

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا ... شكالة الريث فالدنيا على عجل

ولكنه لاينسى مطالبتهم بالملك ان استتب لهم الامر :

(١، ٢) الحديدي، ص ١٠١ عن بلنت، التاريخ السري، ص ١٠١، ١٠٥ يقول عرابي في كتابه كشف الستار عن سر الاسرار ج ١، ص ٤٦ « وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي واخبرنا بها اخبرنا به عبد القادر باشا حلمي فاجبناه بمثل ما اجبنا به من قبله وانصرفنا وقد آنست فيه تأففاً من الظلم والاستبداد وميلا الى العدل والدستور » .

(٣) الديوان : ج ٣، ص ٥ .

(٤) هيكل، مقدمه الديوان، الطبعة الاولى، ص ٢٦

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة يكون لكم في الحادث الجلل(١)

وعندما حلت الازمة الوزارية في عهد اسماعيل طلب إلى ابنه وولي عهده توفيق بتشكيل الوزارة . ووعد توفيق بالاصلاح وتقرب من زعماء الحزب الوطني الحر ونجده «ويتصل بجمال الدين وينضم الى محفله الماسوني ويحبذ آراءه الاصلاحية . » (٢)

وطلبت الدول الأجنبية — انكلترا وفرنسا — من السلطان العثماني عزل اسماعيل .فتولى توفيق الحكم عام ١٨٧٩« ورحب المصلحون جميعاً بارتقاء توفيق منصة العرش واعتبروه دليلاً على حسن الطالع » (٣) وعين البارودي وزيراً للمعارف والاوقاف(٤)«فأنشد مطولة يحيي فيها توفيقاً ويهنئه بجلوسه على الاريكة الخديوية » . (٥) وقال في قصيدته الطويلة هذه محيياً توفيق بالعرش ومهنئاً له بجلوسه على الاريكة الخديوية : (٦)

---

(١) الديوان : ج ٣، ص ٥-٣٥، وهي قصيدة طويلة في ذم الحكام. يقول الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ١٥٨-١٥٩ « ان انظار كثير من شباب حزب الاحرار من المحفل الماسوني وغيرها تطلعت الى البارودي ليكون هذا الزعيم ... فقد كان وقتذاك كما وصف نفسه ومكانته بقوله: واصبحت محسود الجلال كأنني على كل نفس في الزمان أمير .وكان كما قال عنه صديقه الشيخ محمد عبده: كلمة امير في مصر كثيرة التداول ولكن مصداقها محمود سامي البارودي ... فيقدم نفسه الى مواطنيه ليعرفوا فيه الامير الحق والقائد المرجو » .

(٢) الحديدي، ص ٩٥ عن تاريخ الاستاذ الامام، ج ١، ص ٤١ .

(٣) الحديدي، ص ٩٥ عن بلنت، التاريخ السري، ص ٥ »

(٤) وناط بهم البحث عن الاوقاف المجهولة بواسطة كتب التاريخ والحجج الموجودة بالديوان وبذلك اهتدى إلى اماكن كثيرة بعضها مهجور وبعضها مع اناس وضعوا ايديهم عليه بلا مسوغ فاستولى عليها وضمها إلى الديوان ... وكان ذلك مبدأ التفكير في انشاء المكتبة المصرية (الكتبخانة الخديوية) وجمع الآثار بجامع الحاكم » محمد صبري، شعراء العصر، ص ٢٠-٢١

(٥) الحديدي، ص ٩٦ . عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ص ١٤٩ . شوقي ضيف، البارودي ص ٧٠ .

(٦) رفعت هذه القصيدة من الديوان المطبوع عام ١٩٥٤ الجزء الاول وهي من قافية الدال وسبب ذلك الاوضاع السياسية في مصر آنذاك

أبني الكنانة أبشروا بمحمد ... وثقوا براع في المكارم أرغد
فهو الزعيم لكم بكل فضيلة ... تبقى مآثرها وعيش أرغد
ملك نمته أرومة ملوية ... ملكت بسؤددها عنان الفرقد
باهاته قيد الصواب وعزمه ... شرك الفوارس في العجاج الاربد
فاذا تنمر فهو زيد(١)في الوغى ... وإذا تكلم فهو قيس(٢)في الندى
فنهاره غيث اللهيف وليله ... في طاعة الرحمن ليل العبد
لهج بحب الصالحات فكلما ... بلغ النهاية من صنيع يبتدي
خلق تميز عن سواه بفضله ... والفضل والاخلاق أرث المحتد
اقليد(٣) معضلة ومعقل عائذ ... وسماء منتجع وقبلة مهتد
حسنت به الايام حتى اسفرت ... عن وجه معشوق الشمائل أغيد (٤)
وضعت موارد مصر حتى أصبحت ... بعد الكدورة شرعة للورد
فالعدل يرعاها برأفة والد ... والبأس يحميها بصولة أصيد (٥)
بلغت بفضل محمد ما أملت ... من عيشة رغد وحد أسعد
هو ذلك الملك الذي أوصافه ... في الشعر حلية راجز ومقصد
فبنوره في كل جنح تهتدي ... وبهديه في كل خطب نقتدي...
فاسعد ودم واغنم وجد وانعم وسد ... وأبدأ وعد وتهن واسلم وازدد
لازال عدلك في الانام مخلدا ... فالعدل في الايام خير مخلد(٦)

ماذا أبقى البارودي من صفات التكريم فلم يلصقها بالخديو توفيق . وهو الذي يعرف توفيقاً على حقيقته ؟ فقد عمل تابعاً لأبيه وسكرتيراً ، ثم عمل ياوراً لتوفيق عندما كان ولياً للعهد . فإذا كانت هذه الصفات حقيقية فيه فلماذا قلب له البارودي ظهر المجن وراح يكيد له ، ويهاجمه في شعره هجوماً شديداً ؟ فمن

(١) زيد الخيل وهو من فرسان العرب
(٢) قيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء .
(٣) اقليد : مفتاح .
(٤) اغيد : ناعم البشرة .
(٥) أصيد : الأسد .
(٦) الديوان : جـ١ الطبعة الاولى ، ص ١٣٠–١٣٨ .

مدح وذم كذب مرتين .وإذا كان يعرف أن خلاله على الضد مما وصف فقد كذب على نفسه وعلى الشعب الذي كان يمثله الضباط الاحرار الذين اولوه ثقتهم .

ولماذا قدح في اسماعيل ولي نعمته ؟ ألانه أراد أن يحظى بمكانة أعلى عند توفيق ، أم أنه خشي أن يعده توفيق من رجال والده المخلوع فلا يثق به ، وهذه طبيعة الملوك ؟ انه يقدح في حكم اسماعيل في نفس القصيدة . فيقول :

اطلقت كل مقيد وحللت كـ ل معقد وجمعت كل مبدد
وتمتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد

ثم ماذا ؟ نكل توفيق بالدستور وابعد الافغاني عن مصر(١) ،وحكم مصر حكماً مطلقاً فسقطت الوزارة ، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة (مصطفى رياض) « العميل المثالي فقد كان يمعن في الاذعان لوكلاء الدول ويهوى الحكم المطلق هواية تسلطت على نفسه » . (٢) واصبح البارودي وزيراً للاوقاف مع علمه باستبداد رياض . هذا بالاضافة إلى نقضه للعهد مع شريف الذي ادخله في وزارته — قبل ذلك — وزيراً للمعارف والاوقاف . « فقد أخذ عليه بعض المؤرخين أنه خرج على الاتفاق الذي عقده شريف مع وزرائه بألا يشتركوا في وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديو على البرنامج الدستوري الذي أعده شريف وان يكون هو رئيس الوزراء » (٣) .

وعادت حركة الضباط الاحرار إلى سابق عهدها ، وكان سببها : «الفروق الطبقية والعصبية للجنس التي أخذت تتحكم في مقدرات الضباط والجيش فقد كان الضباط الجراكسة والارقاء والاتراك يمنحون الترقيات ويوضع زمام سلطة الجيش في أيديهم على حين يلقى الضباط المصريون أسوأ أنواع المعاملة والزراية

(١) «ومن المؤلم حقا ان يتقرر نفي جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا ... ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف وقتئذ وقد كان من اصدق مريديه وانصاره فتامل كيف يتنكر الانصار والاصدقاء لاستاذهم والى اي حد يضيع الوفاء بين الناس . ولاندري كيف اساغ البارودي نفى السيد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته واذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجا واستنكاراً» علي الوردي ص ٢٨٢

(٢، ٣) الحديدى ، ص٩٨ انظر عبدالرحمن الرافعي الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ص٣٧-٣٨

والاهمال وامعن كبار الضباط الجراكسة في تعصبهم حتى كادوا يجعلون حرمان الضباط المصريين من الترقي أمراً مشروعاً ويقصرونها على بني جنسهم . وبدأت الثورة تجتاح قلوب الضباط المصريين جميعاً وكان أكثرهم قد انضم لحركة الضباط » . (١)

وقد وجد البارودي أن الفرصة سانحة له ، واعلن شعره في أوقات كثيرة عن طموحه الكبير :

أطالب أيامي بما ليس عندها ومن طلب المعدوم اعياه وجده
فما كل حي ينصر القول فعله ولا كل خلّ يصدق النقص وعده
واصعب مايلقى الفتى في زمانه صحابة من يشفى من الداء فقده
أبى الدهر الاّ أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغده
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته أضر عليه من حمام يؤده
واقتل داء روية لعين ظالما يسيء ويتلى في المحافل حمده
فما بي إلى العلياء فرع تأثلت ارومته في المجد وافتر سعده
وحسب الفتى مجداً إذا طالب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده
أصدّ عن المرمى القريب ترفعاً واطلب أمراً يعجز الطير بعده
ولابد من يوم تلاعب بالقنا أسود الوغى فيه وتمرح جرده (٢)

لقد حانت الفرصة التي طالما أصر في شعره على اقتناصها . ولكن السؤال القائم ، لماذا مدح توفيقاً ؟ هل لأنه أعطاه وزارة يعدها الدرجة الأولى في سلم الصعود إلى مايصبو اليه؟ ولماذا حالف حركة الضباط إذاً وهو في الوزارة؟هل لانه يأمل الوصول إلى أمر يقصر الطير عنه ؟ انه الصواب حتماً . فقد أثرت المذكرة التي قدمها عرابي وصحبه في الخديو توفيق « واجتمع مجلس الوزراء في ٣١ يناير برئاسة الخديو ، وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقي وزير الحربية

---

(١) الحديدي، ص ١٠٤ .
(٢) الديوان، ص ١١٤-١١٨ .

آنذاك قتل الحركة في مهدها باستئصال زعمائها ودبروا لثلاثتهم — زعماء الضباط الثوار—مؤامرة للقضاء عليهم بعد محاكمة صورية(١)ولكن السر وصل إلى الضباط في الحال من محمود سامي البارودي » (٢) وتمرد الضباط وجنودهم فذعر توفيق « واستسلم توفيق وانتدب البارودي لمفاوضة الزعماء .. فأقيل عثمان رفقي والغي قانون العسكرية واسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامي البارودي» (٣)

وكان ذلك التعيين منسجماً مع اهداف الضباط فقد كانوا يجدون في البارودي نصيرا لهم (٤) ومن هنا توطدت صلات الثقة بين البارودي والضباط اذ برهن على أنه كان مؤيداً لهم داخل مجلس الوزراء ثم قام البارودي باعتباره وزيرا للحربيه بتعديل القوانين العسكرية لاصلاح حالة الجيش وزيادة مرتبات الضباط . (٦)

وأقام مأدبة فخمة بالمناسبة ارتجل فيها خطاباً كله ثناء على الخديو توفيق

(١، ٢) الحديدي، ص ١٠٥ عن البحر الزاخر، ج ١، ص٢٠٦-٢٠٧، محمد حسين هيكل، تراجم مصرية وغربية ص ٨٣، تاريخ مشاهير الشرق ج ٢، ص ٣٠١ .

(٣) الحديدي، ص ١٠٦ . يقول هيكل في كتابه تراجم مصرية وغربية، ص ٨٣ « ورأى نفسه .الخديو توفيق في مأزق لا يعرف سبيلا إلى النجاة منه سارع إلى اجابه طلب العصاة واقال عثمان رفقي من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المنتفضين محمود سامي البارودي» ويقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه الثورة العربية ، ص ٣٨ « على حين ان الاطماع في رآسة الوزاره هي التي اشارت عليه هذه الحماة » (ورجال المطامع يغتنمون هذه الفرص لنيل المناصب الكبرى وكثيراً ما كانت امثال هذه الحركات سبباً في انتقال الملك من دولة الى دولة اذا وافقت الاحوال وتوفرت الرجال وفي التاريخ امثلة كثيرة من هذا النوع اما المترجم فقد كان طامعاً في منصب الوزارة وما وراءه فكان ينقل إلى عرابي ورفاقه قرارات ذلك المجلس وابحاثه ما يتعلق بهم ليحذروه او يتهيأوا للقائه مما يطول شرحه وقد نجح في ما كان يؤمله فتولى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار فكان له النفوذ الاعظم في تلك الثورة اما عرابي فقد تصدر لها وتظاهر بها عن صدق نية وبساطة»، جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ٣٩٧ .

(٤) احمد عرابي، كشف الستار، ص ١٦٥-١٦٦، ص ١٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابية، ص١٠٧ ١١٨-١١٩ .

(٦) احمد عرابي، كشف الستار، ص ١٦٧-١٦٨ . يقول ميكافيللي ، ص ١١٤ : « أن واجب الامير ان يكسب ثقة الشعب وصداقته والافلا ملجأ له في وقت الشدة ولا سلامة حين المحنة ».

وتعظيم له جاء فيه « وقد رأينا في هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديوينا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهماً اذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل والنقم بالنعم وتقدمت فيه البلاد إلى نجاحها تقدماً سريعاً وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه وانه اصطفى لمساعدته على مقاصده الجليلة رجلا غيورا على الهمه ذكي النفس هو حضرة دولة رياض باشا فلم يأل جهدا في العمل ولم يقصر في تذليل المصاعب باتحاده مع حضرات رفاقه الكرام حتى وصلنا إلى هذه الغاية » . (١)

يقول علي الوردي : « شعر الافغاني في عهد توفيق باشا كأن الدولة المصرية كلها اصبحت طوع يده فقد كان توفيق باشا ما سونياً وكان علاوة على ذلك محباً للافغاني ومعجباً بافكاره واخذ الافغاني يوجه اعضاء محفله الماسوني نحو العمل الجدي لاصلاح الجهاز الحكومي وجعلهم عدة فئات واناط بكل فئة فيهم مراقبة الدوائر في وزارة من الوزارات ففئة للحقانية واخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية » . (٢)

وبدت الامور وكأنها قد استقرت وهدأت تماماً .

ولكن رئيس الوزراء رياض كان سريع الحركة فلم ينفذ شيئاً مما قرر فعله، عندما رأى ان الوزارة بدأت في الضعف والانهيار على حساب قوة الجيش « وكان سامي البارودي ... من اقوى المحركين لعرابي ومن معه » (٣) كما تحرك توفيق بسرعة واقال البارودي من منصبه وعين مكانه صهره داود باشا يكن . (٤)

وكانت فرصة البارودي سانحة تماماً : « استقل البارودي إلى ضيعة بقرقيرة .. وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ذلك النمام الذي

(١) احمد عرابي، كشف الستار ص ١٦٥-١٦٦، ١٧٧

(٢) علي الوردي: لمحات اجتماعية، ص ٢٨٠ .

(٣) هيكل، تراجم، ص ٨٤ .

(٤) هيكل، ص ٨٤، احمد عرابي كشف الستار ، ص ٢٢٥ .

كشف صلته بزعماء الحركة وجرى بالوقيعة حتى اقاله فاصابه في مقتلين اصابة في امانيه الشخصية فتبدلت احلاماً ...». (١) ويصب البارودي جام غضبه على رياض . لقد كشفه امام توفيق فلم يبق امامه سوى الدعوة للثورة.

هذا الذي تكرهالابصارطلعته ... فحظها منه ايـذاء وايـلام
في وجهه سمة للغدر بينـة ... وبين جنبيـه احقاد وادغام(٢)
وكيف يصلح امر الناس في بلد ... حكامه لبنات اللهو خدام (٣)

لقد كان يخمن نجاح دعوته فبدأ يدعو ، ويشيد بمنزلته وعظمته ومكارم خلقه ودعوته إلى العدل :

حلبت اشطر هذا الدهر تجربة ... وذقت مافيه من صاب ومن عسل(٤)
فما وجدت على الايام باقية ... اشهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشر في زمـن ... اهل العقول به في طاعة الخمل
قامت به من رجال السوءطائفة ... ادهى على النفس من بوس على ثكل

* * *

واصبحت دولة الفسطاط خاضعة ... بعد الاباء وكانت زهرة الدول

* * *

بئس العشير وبئست مصرمن بلد ... اضحت مناخاً لاهـل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل
واصبح الناس في عمياء مظلمة ... لم يخط فيها امرؤ الاّ عـلى زلل

---

(١) الحديدي، ص ١٠٨ – ١٠٩ .
(٢) ادغام: الحقد الثابت في الصدر .
(٣) الحديدي، ص ١٠٩، هذه الابيات لم يسبق نشرها .
(٤) الديوان، ج ٣، ص ٥–٣٥ .

ويذكر الشعب المصري ببطولات أجدادهم وكأنه يستوحي بطولات أجداده هو ويستحثهم على الثورة : (١)

وتلك مصر التي أفنى الجلادبها لفيف اسلافكم في الاعصر الأول
قوم أقروا عماد الحق وامتلكوا أزمة الخلق من حاف ومنتعل
ولاتلجو اذا ما الرأي لاح لكم إن اللجاجة مدعاة الى الفشل

* * *

ولاتتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم فالجد مفتاح باب المطلب العضل

وتسارعت الامور وبدا للراصد وكانه قد نجح فعلاً في تحقيق هدف جديد من أهدافه فقد شكلت وزارة جديدة برئاسة محمد شريف (٢) واصبح البارودي فيها وزيراً للجهادية .وتذكر كتب التاريخ أن رئيس الوزراء شريف باشا رفض أن يجعل البارودي وزيراً للجهادية في وزارته لانه خان العهد ودخل وزارة رياض باشا السابقة ولكنه خضع لالحاح عرابي حتى أن شريفاً عرض على عرابي وزارة الجهادية ولكنه رفضها واصر على أن يكون البارودي وزيراً للجهادية فوافق شريف على مضض . (٣) وقوي مركز البارودي حتى أصبحت داره مقصداً لطلاب الحاجات وقويت العلاقة بينه وبين عرابي . وطلب البارودي إلى عرابي أن يصبح وكيلاً لوزارة الجهادية وعين في هذا المنصب في ٤ يناير١٨٨٢ .(٤)

---

(١) يقول ميكافيللي ص ٧١ : «لأن طبيعة التملك والسيادة راكزة في نفس كل أمير بل اراني أميل للثناء على كل راغب في مد نفوذه اذا كان يحسن التصرف ولكن من يحاول امتلاك البلاد وهو جاهل بطرق السياسة يتفانى فيما توحيه اليه شهوة التملك فهو جدير بان يلام على تهوره لوما عنيفا» .

(٢) «ولما تقلد شريف باشا رئاسة الوزارة دعاه لان يكون ناظراً للجهادية كما كان فابى واجاب بانه عقد النية على الايقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون والح عليه فلم يقبل حتى دعاه الخديو... فقبل ذلك ثانيا» . محمد صبري، شعراء العصر، ص ٢١ .

(٣) احمد عرابي، كشف الاسرار، ص ٢٣٨-٢٣٩ . الرافعي، الثورة العرابية ، ص ١٤٨ .

(٤) الرافعي ، المصدر السابق ص ١٧٥ – ١٧٦

وحدثت أحداث اجبرت رئيس الوزراء على الاستقالة ،فاسند الخديو توفيق إلى البارودي رئاسة الوزارة في عام ١٨٨٢ .ولكن هل حقق البارودي ماكان يطمح اليه ؟ (١) .

لقد شرع البارودي عند تعيينه رئيساً للوزارة بكسب ثقة الشعب باعلان الدستور واجراء الانتخابات النيابية في البلاد ،وهو عمل يدل على الاصلاح الذي كان يزمع البارودي تحقيقه . وجاء هذا العمل تأكيداً لما كان يردده في شعره ويدعو اليه (٢) فقد كثرت دعوته إلى خلق نظام نيابي في البلاد كسمة من سمات الديمقراطية التي كان ينشدها البارودي ويؤمن بضرورتها بالنسبة لنظام الحكم في البلاد :

سن المشورة . وهي أكرم خطة ... يجري عليها كل راع مرشد
هي عصمة الدين التي اوصى بها ... رب العباد إلى النبي محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه ... ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران مااجتمعا لقائد أمة ... الا جنى بها ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم ... شورى وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة ... ويعز ركن المجد مالم يعمد(٣)

والذي يوقف الباحث قليلاً عند هذا الأمر .ان البارودي لم يكن يثق بالناس كثيراً وكان يدعو الى الاحتراس منهم والحذر تجاههم :

---

(١) قال ميكافيللي ص ١٥٩ — ١٦٠ « وقد تعلمت الحكومات المنتظمة والامراء والعقلاء الا يلحقوا بالامة القنوط وان يرضوا الشعب ويقنعوه .. ومن هذه النظامات (مجلس البرلمان) لئلا يسخط عليه الاشراف لشدة اهتمامه بالعامة أو يسخط العامة لشدة اهتمامه بالاشراف فالواجب على الأمير أن يحترم اشرافه دون أن يحصل على بغض الامة » .

(٢) الديوان : جـ٢ ، ١٧٩، ١٨٨، ٢٢٥ — ٢٣٠ .جـ٣ ، ٥ — ٣٥، ٤٦٨ — ٤٨١، ٥٥٥ — ٥٥٩، ٣٦٢ — ٥٦٥

(٣) ديوان البارودي، دار الكتب المصرية ، جـ١ ص ١٣١ — ١٣٨

بنوت الناس واستخبرت عنهم صروف الدهر آنا بعد آن
فما أبصرت غير أخي كذاب خلوب الود مصنوع الحنان
يصرح بالعداوة وهو ناء ويحذق (١) في المحبة وهو دان
له في كل جارحة لسان يدور به على حكم الزمان
فلا تأمن على نجواك صدراً فرب خديعة تحت الأمان
فلا يغررك قول دون فعل فان الحسن قبح في الجبان
وخل الناس عنك فليس فيهم سليم القلب عند الامتحان
تشابهت الاسافل بالاعالي فما تدري الهجين من الهجان (٢)

فلماذا فعل ذلك ؟ لقد آمن البارودي بالنظام الديمقراطي الذي شاهده في انكلترا وفرنسا عند سفره اليهما ومضى في تحقيق المجلس النيابي رغم علمه بمعارضة الخديو للأمر بعد تسلمه رئاسة الوزارة تأييداً لدعوته التي رددها في شعره من جهة ودعماً لمركزه السياسي الذي كان يهتز من جراء المعارضة الشديدة له من قبل السياسيين المعارضين والمساندين للخديو توفيق ضد حركة الضباط الأحرار .

يقول الرافعي : « كان يطمع البارودي في رئاسة الوزارة وهكذا كان التطلع إلى المناصب الوزارية ولم يزل من أسباب ما حل بمصر من الكوارث . ويقينا أن الثورة العرابية قد بدأت تسلك سبيلاً بعيداً عن الحكمة من يوم أن اتفق زعماؤها على اسقاط وزارة شريف باشا .فان شريف كان بلا نزاع أقدرمن البارودي على حسن تدبير الامور في تلك الاوقات العصيبة ... أما البارودي فقد كانت نشأته أدبية وحربية فحسب ... أضف إلى ذلك أن النشأة الحربية إذا اجتمعت الى الشعر والادب تثير في النفس روح الخيال والتطلع إلى أقصى مراتب المجد والعلا.هنا جاءت آمال البارودي بعيدة الأفق لاتقف عند حد حتى بلغت التطلع إلى العرش كما اسلفنا ،وليست هذه الآمال مما لايرد بخواطر بعض الزعماء في أثناء الانقلابات وانما هي أقرب شيء يخطر ببالهم ويجيش بصدورهم

(١) يحذق : لايخلص الود
(٢) الحديدي ، البارودي شاعر النهضة ص١٧٣ .

التازيخ شاهد على ذلك ... ولاشك أن الخديو توفيق لم يكن بالصفات ولا بالمزايا التي تجعله مرضيا عنه وعن سياسته في الحكم وقد كان الكلام في تغييره واسناد الخديوية الى الامير حليم باشا مما تفيض به مجالس الناس في ذلك العهد فلا غرابة أن تساور البارودي فكرة احقيته في اعتلاء العرش ... بل أن مصلحة البلاد تتنافى والتفكير في هذه المطامع وماتجره اليه من الفتن والدسائس والتدخل الاجنبي ثم الاحتلال » (١)

ولكن طموح البارودي مازال بعيداً ،فهذا الخديو يتخطى الدستور المعلن ويقرر عدم اجتماع مجلس النواب ، والنواب يطالبون بالاجتماع والهياج الشعبي على أشده . (٢)

واشتد الخلاف بين الخديو ورئيس نظارته البارودي « وما يؤخذ على الزعماء انهم خلال تلك الازمة قد جاهروا في اجتماعاتهم برغبتهم في خلع الخديو ... ولو كان على رأس الوزارة رجل اكثر حكمة وابعد نظراً في الامور من البارودي لما استفحل الخلاف بينها وبين الخديو الى هذا الحد » .(٣) ويبدو ان طموح البارودي في الوصول الى العرش كان السبب الاساس في ذلك الخلاف فبعد أن كشف اوراق توفيق واقذع في شتمه وعراه تماماً وهو يقارنه بعلو كعبه وسمو خلقه ، اعلنها حرباً شعواء ضده مثيراً الشعب والجيش فقد خشي ان تفلت الفرصة من يده وينصب الامير حليم باشا خديوياً على مصر ، فقد اتفقت الآراء على انه اصلح فرد في الاسرة الخديوية لتسنم العرش ، لذا راح البارودي يغرى عرابي بأن يستولي على

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٢) يقول ميكا فيللي ص ١٥٢-١٥٣ : «فالامير مضطر للتطبع بطبع الحيوان فيقلد الاسد والثعلب ... لذا ينبغي على الامير أن يكون ثعلباً ليتقي الحفائر والحبائل واسداً ليرهب الذئاب ...ثم ان الامير لا يفقد حيلة شرعية يركن اليها اذا لم يف بوعده... وان يكون ماهراً في فن التظاهر بغير شعوره ثم ان الناس من البساطة بمكان وهم اصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع فريسته .

(٣) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٣٠٥

الحكم وفي هذا يقول عرابي: «ثم اقسم انه مستعد لان يضحي حياته ويجود بأخر نقطة من دمه في تنفيذ رغبتي ويجرد حسامه وينادي باسمي خديوياً لمصر اذا رغبت في ذلك » . (١) ورغم ان هذا الموقف يدلل على تسام من قبل البارودي ويؤكدحبه لعرابي الا اننا نرى ان البارودي كانعالماً بان عرابياً عزوف عن الامارة والحكم ، وعندئذ يمكن ان يساعده في الوصول الى هدفه في الحكم والرئاسة «فقلت له مه يامحمود باشا فاني لااريد الا تحرير بلادي ولا أرى سبيلا لتوالنا الا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مراراً وتكراراً ... ولا اريد انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة اخرى لما في ذلك من الضرر مع علمي بانك تنتسب الى الملك الاشرف (سيرباي) » (٢) وعندما رأى البارودي عدم اقتناع عرابي برأيه ادار الحديث وافصح عن قصده « فقال انا لا اقول لك الا حقاً وانت احق بهذا الامر مني ومن غيري فشكرته على ثقته بي وتم الحديث ». (٣) ويقول البارودي « كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمانهم ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل ان نموت ». (٤) وهذه دعوة تتفق مع ما كان ينادي به البارودي دائماً لتحقيق الديمقراطية في البلاد وهي دعوة تدل على فهم البارودي ، لمساويء نظام الحكم الملكي وما يجر على الشعب من جور وظلم .

ولا ننكر نواياه الطيبة وفهمه الجيد لنظم الحكم في عصره الا انه كان يعلم في الوقت ذاته الا سبيل للوصول الى الحكم الا باقامة نظام جمهوري يحل محل النظام الملكي الوراثي .

ولكن دعوته الى اقامة النظام الجمهوري لم تنزل منزلة المقبول في نفس زعماء الثورة. قرب الاسطول البريطاني من شواطيء الاسكندرية ، وارسل البارودي الى محافظ الاسكندرية يعلمه بان هذا الاسطول قدم لغرض سلمي

(٣،١) احمد عرابي، كشف الستار ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

(٤) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ص ١٤١-١٤٢

وكانه توهم« ان الاسطول الانجليزي قادم لينتصف للوزارة من الخديو ويؤيدها في خلافها معه » (١) .

ويؤكد الرافعي ان البارودي كان « يطمح ايضاً الى العرش كما نوه عرابي الى ذلك في مذكراته وهذا الطموح هو من العوامل التي جعلته في عهد وزارته يميل الى الاصطدام بالخديو ،على حين كان من الميسور تقريب مسافة الخلف بينه وبين العرابيين » (٢).

وانقسم مجلس النواب ، وقرر الخديو توفيق نفي عرابي .وتوالت الامور باسرع مما كان يتصور البارودي ووجد الا سبيل للتوافق مع الخديو فنفث قلبه حقده عليه ذلك الحقد الدفين الذي ليس ابن ساعته بل ابن ترسبات غطست في لاشعوره ، مطالباً بالثأر من الاسرة الخديوية برمتها ، بقصيدة مطلعها :

سكـــن الفواد ، وجفت الآماق ومضت على اعقابها الاشواق(٣)

وهو يصورلنا الحاكم وحاشيته مرة بالصقر المغير علىاسراب من القطا، ومرة اسدا فتاكاً يروع الامنين . ومرة اخرى يشبهه بحية رقشاء تكون نهايتها مرة قاسية ، وكانه يرجو لتوفيق مثل نهاية الحية :

تالله اهدأ أو تقوم قيامـة فيها الـدماء على الدماء تـــراق
قلبي على ثقـة ونفسي حـرة تأبى الدنيّ وصارمي ذلاق
لاخير في عيش الجبان يحوطه من جانبيه الذل والامـلاق
حتى إذا ظن الظنون بنفسه تيها بها وخلت له الأعمـاق
أنحى فاقصده الزمان بسهمه ان الزمان لنابل ميفـاق (٤)

---

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ٣٠٧ .
(٢) الرافعي، الثورة العرابية ، ص ٥٦٤
(٣) الديوان، ج ٢، ص ٢٥٨-٢٧٢ .
(٤) ميفاق: يحسن الرمي بالنبال

ولا يكتفي بذلك بل يمطره بوابل من نقده ،فالفرصة مواتية وازالته عن طريقه أصبحت قاب قوسين .فلماذا لايلح بثلمه والفخر بنفسه ، ليعطي البديل لهذا العرش المتداعي . ؟

عدادك في سلك البريـة خزية ودعواك حق الملك أدهى واعظم
لقد هانت الدنيا على الناس عندما رأوك بها في ملك يوسف تحكم
فان تك اولئك المقادير حكمها فقد حازها من قبل عبد مزنم
وشتان عبد بالمحجة ناطق وحر اذا ناقشته القول أغتم
فهذا أذل الملك وهو معزز وذاك أعز الملك وهو مهضم(١)

ويعجز الخديو توفيق عن تشكيل وزارة جديدة ، وتعم الفوضى في البلاد ويسافر فجأة إلى الاسكندرية ويتسلم عرابي زمام الامور ويعلم توفيق بالامر فيلجأ إلى الاسطول البريطاني ،الذي كان راسياً قريباً من المياه الاقليمية المصرية.

حاول البارودي أن يصلح الأوضاع بين عرابي والثورة من جهة ،والخديو وبطانته من جهة أخرى ،قبل سفر الخديو إلى الاسكندرية ، لأنه يئس من نجاح الثورة، فلم تكن قيادة الجند حكيمة ، في الوقت الذي كانت الفوضى تستشري ،وخشي البارودي أن يفقد مركزه كرئيس للوزراء .

ويؤكد هيكل ذلك قائلاً :« وكان البارودي يرجو أن يتلافى هذه الحركة وان يصل بحسن رأيه إلى اقامة العدل والاصلاح في مصر على أساس من مباديء الثورة السلمية التي انتشرت دعايتها في البلاد ولكن الامور سارت على غير هواه واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق...رأى انكلترا وفرنسا تتدخلان وتبعثان بمذاكراتهما المشتركة إلى الحكومة المصرية فأحس الخطر ورأى ألاّ طاقة لمصر

(١) مهضم: كسير ذليل

بمواجهة الموقف. ولقد حاول أن يتخلص منه بالاعتزال في مزارعه ».(١).
وتتوالى الأحداث بسرعة .وقد وصف البارودي الحالة التي آلت اليها مصر آنذاك ،يقول في قصيدته التي مطلعها.

من خالف العزم خانته معاذره ومن أطاع هواه قلّ ناصره (٢)

ويبدو انه غير راض عن الاوضاع التي كانت سائدة في القاهرة ،حيث قال :

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى اذا تم ساءتنا مصايره

وهنا يتساءل المتسائل : لماذا ساءه مصير الانقلاب ؟ الجواب واضح على ذلك . فالثوار لم يتركوا له الحبل على الغارب ، لذا فالشاعر يبسطن القلق والخوف والجزع :

فالقلب مضطرب فيما يحاوله والعقل مختبل مما يحاذره

ويؤكد ان الثوار لم ينتفعوا بمشورته التي طالما نفعت من سبقهم :

قد كان في السلف الماضين نافعه فصار في الخلف الباقين ضائره

وهو يؤنب نفسه ، لانه حاذر الشر كثيرا فيما مضى ، وها هو يقترب منه على حين سعى إلى الخير فلم يحصل عليه ،وهو يرى ان ماآلت اليه الاحداث ، مشابهة كل المشابهة لما كانت عليه في الماضي ، فها هو الملك يتزعزع والأمن يضطرب ولم يحصل الشاعر على بغيته بعد:

ما ابعد الخير في الدنيا لطالبه واقرب الشر من نفسي تحاذره
اكلما مر من دهر أوائله كرت بمثل أواليه أواخره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت قواعد الملك حتى ريع طائره

(١) هيكل، مقدمة الديوان، ج ١، الطبعة الاولى ص ٢٥—٢٧
(٢) الديوان: ج ٢، ص ١٠٨-١١٧ .

واستحكم الهول حتى مايبيت فتى في جوشن الليل الا وهو ساهره

ولكن الامل لم يمت في نفسه بعد رغم الحالة المتردية :

يانفس لاتجزعي فالخير منتظر وصاحب الصبر لاتبلى مرائره
لعل بلجة نور يستضاء بهـا بعد الظلام الذي عمت دياجره

وهذا الامل لايتم الا عن طريق ثورة عارمة لاتبقي ولاتذر :

اني أرى نفساً ضاقت بما حملت وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران او بعض شهران هي احتدمت وفي الجديدين ماتغني فواقره(*)
فان اصبت فعن رأى ملكت به علم الغيوب ورأى المرء ناظره

ولكن هل حقق له بعد نظره وحذره واغتنامه للفرص أهدافه ؟ توالت الأحداث ناعية تدخل الاسطول البريطاني لحماية العرش بناء على طلب الخديو توفيق .واعلنت الصحافة الأوربية عن التمرد الذي حصل في مصر. وكان على الدول ذات المصالح أن تقمع هذا التمرد ، الذي حدث في الجيش .

وضرب الاسطول البريطاني في ١١ حزيران عام ١٨٨٢ مدينة الاسكندرية، وانتشرت قطع الاسطول على طول الساحل، واستولت على قناة السويس (١). وسقطت بور سعيد في ٢٠/ ٨/ ١٨٨٢ وأسقط في يد البارودي ،وطفت حسرات الندم على شفتيه :

لعمري لقد ايقظت من كان راقدا وانذرت لكن لم تكن تنفع النّذر
نصحت فكذبتم فلما أتى الرّدى عمدتم لتصديقي وقد انقضى الأمر
فلم يبق في أيديكم غير حسرة ولم يبق عندي غير ما عافه الصدر
فجاء الذي كنتم تخافون شرّه وزال الذي لم يبق من بعده شعرُ(٢)

(*) الفوقر : جمع فاقرة وهي الداهية .

(١) «وابتعد عن الحكومة ورجالها حتى شبت الحرب بين مصر وانكلترا ودعي من رجالها لمساعدتهم فاجاب كرهاً بعد ان نصحهم بالبعد عنها ويشير الى ذلك بقوله:

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة وربما تاح امر غير مضنون

محمد صبري، ص ٢١

(٢) الديوان، ج ٢، ص ٨٤-٨٥

انه يضع اللوم على زعماء الثورة الذين نصحهم فلم يلتفتوا إلى نصحه، ولكن الأحداث أثبتت صواب قوله – وكأنه يريد أن يتنصل من المسؤولية ،ويضعها على عاتق زعماء الثورة – فأصابته حماقتهم بالغيظ والكمد. وسكت غناؤه واصابه خطؤهم بالحسرة ، بما كانوا يخشون عاقبته – نصحه – وهو فشل الثورة ،وكأن الشاعر يشمت بهم ،ويتشفى بما أصابهم ،لأنهم لم يطيعوه .

وهنا نتساءل : لماذا كل هذا الخور من الشاعر الذي طالما تفاخر بشجاعته واستقامته وتضحيته . هل هو الخوف على مركزه وأملاكه وامواله أو هو الخوف على النفس إن هذه الأبيات تعبر بصدق عن مشاعره آنذاك.فقد قالها معبراً عما يحسه من خيبة دون تصنع أو حذلقة أو تفاخر.وهو الذي يقول عن نفسه بأن شعره يعبر عن صدق أحاسيسه :

انظر لقولي تجد نفسي مصورة في صفحتيه فقولي خط تمثالي (١)

ويؤكد ذلك هيكل في مقدمة الديوان«شعر البارودي»حياته فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات الشاعر ».(٢)

إذن فهو كان يصبو الى التخلص من توفيق وبطانته ليستتب له الأمر، وما معاونته لزعماء الثوار الاّ للوصول إلى هدفه،وليس لهدف آخر، فلما تورط الزعماء بالحرب أراد أن يتخلص ويعتزل في مزارعه : (فأحس بالخطر ورأى أن لاطاقة لمصر بمواجهة هذا الموقف ولقد حاول أن يتخلص منه بالاعتزال في مزارعه وذلك بأن نصح للعرابيين وصارحهم برأيه . لكن اندفاعه في حركة الضباط من بداءتها حال بينه وبين التخلص منهم . فلم يكن له بد من ان يسير معهم وان يربط حظه بحظهم » (٣) . ويؤكد ذلك قوله :

---

(١) الديوان ، ج ٣، ص ١١٥

(٢،٣) مقدمة الديوان، ص هـ، ق .

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة وربما تاح امر غير مضنون
فخالفوني وشبوها مكابـــرة وكان اولى بقومي لو اطاعوني
تأتي الامور على ماليس في خلد ويخطىء الظن في بعض الاحايين
حتى اذا لم يعد في الامر منزعة واصبح الشر امرا غير مكنـون
أجبت اذا هتفوا باسمي ومن شيمي صدق الولاء وتحقيق الاظانين(١)

ويؤكد هيكل ما رسمناه من موقف البارودي تجاه الثورة العرابية : «وكان البارودي يرجو ان يتلافى هذه الحركة ... لكن الامور سارت على غير هواه واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحركت فيها اسباب الاعتداد بمكان اجداده المماليك الذين حكموا مصر وقصيدته التي مطلعها :

قلدت جيد المعاني حلية الغزل وقلت في الجد ماأغنى عن الهزل

لاتبرئه من هذا التفكير » (٢) . ومثل هذا الرأي نجده في مكان آخر يقول فيه « فاننا لانستطيع ان نبرئه براءة كاملة من تطلعه إلى الملك في فترة خاصة من حياته هي فترة شبابه وفي يقيني ان البارودي ... كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى احق بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسته . . . ومن ثم راوده طموح الشباب واحلامه وتمنى ملك مصر » (٣) . وهناك من يؤكد ذلك ايضاً : يقول عمر الدسوقي « وطالب الجيش بعزل توفيق ، ونازعته نفسه يومئذ الى المجد المؤمل وإلى مكان اجداده المماليك الذين حكموا مصر ... ولكن التيار كان شديدا ... وعلم ان لاقبل له بمواجهته فنصح لعرابي واخوانه

(١، ٢) مقدمة الديوان، ص ق، ص . عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ص ١٥٠
يقول الرافعي معلقاً على هذه الابيات في كتابه الثورة العرابية ص ٥٦٥ «ولكن يلوح انه لم يقل الشعر الا اسفاً على ماتورط فيه فان كل الدلائل والملابسات تدل على انه كان يدعو إلى الاصطدام بالخديو وقد اصطدم به فعلا في حادثة الضباط الجراكسة» .

(٣) الحديدي، ص ١٥٨ .

وصارحهم برأيه وحاول الاعتزال في مزارعه ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً » . (١)

لم يكن البارودي يتوقع ما حدث ، فعندما نشبت الحرب حاول الاعتزال ، وعندما لم يفلح في ذلك انسحب الى الصفوف الثانوية ليلقي التبعة الاساسية على غيره :

« وهذا الموقف الذي وقفه البارودي هو الذي جعله لايبرز في الصف الاول من صفوف الثورة العرابية ولا يتولى زعامتها ولو انه كان مؤمنا بها ايمان عرابي واصحابه لكان من الطبيعي ان يتقدمهم وان يدعو بدعايتهم فهو قد اشترك في حرب اقريطش وروسيا وأبلى فيها بلاء يجعله اقدر ضباط الثورة جميعاً على قيادتها وهوقدكان لاريب اكثرهم ذكاء واعلاهم ثقافة واعرفهم بشؤون الحياة الدولية . اما وقد سايرهم اذعاناً لحكم الاحوال فقد رجع إلى الصف الثاني من صفوف الثورة » . (٢)

ويصور لنا وضعه النفسي في تلك الفترة عندما اصبح تحقيق طموحه الاكبر قريباً منه ولكنه فقده وفقد معه كل احلامه وأمانيه ، في القصيدة التي مطلعها :

تأوب طيف من سميرة زائر وما الطيف الا ماتريه الخواطر(٣)
ملكت عقاب الملك وهي كسيرة وغادرتها في وكرها وهي طائر

وهو يرثي خيبته بما تعودناه منه من فخر اعجاب بالنفس :

فان كنت قد اصبحت فل رزية تقاسمها في الاهل باد وحاضر
فكم بطل فل الزمان شباته وكم سيد دارت عليه الدوائر
وأى حسام لم تصبه كلالة؟ واى جواد لم تخنه الحوافر ؟

انظر إلى كلمة (فلّ) التي كررت مرتين في بيتين متتاليين ، والى كلمة (كلالة) وإلى كلمة (تخنه) لتدرك مدى احساسه بالخيبة والضعف ، رغم

(١) عمر الدسوقي في الادب الحديث، ج١، ص ١٥٠
(٢) هيكل، مقدمة الديوان .
(٣) الديوان، ج٢، ص ٦٢-٧٣

تفاخره ، ولكنه سرعان ما يظهر تخاذله وضعفه ويدرك قصوره عن بلوغ طموحه فيلجأ الى قوة عليا تعينه ، شأن كل المهزومين في الوقت الذي لم يلجأ لها عندما كان يحس بقوته بل كان يستعين دائماً بشجاعته وشمائله وحسن رأيه واقتناصه للفرص كما يظهر في شعره .

فسوف يبين الحق يوما لناظر ؟ وتنزو بعوراء الحقود السرائر
وما هي الا غمرة ثم تنجلي غيابتها ، والله من شاء ناصر

يقول الاسكندري : « فلما اضطرمت نيران الثورة ارغمه زعماؤها على اصطلاء نارها فخب فيها ووضع » .(١)

وقد اناط به عرابي موقع الصالحيه ، ولكن البارودي لم يحسن التوقيت للأنضمام الى معركة التل الكبير الفاصلة (٢) .

« ولما علم محمود باشا سامي البارودي حكمدار جيش الصالحيه ومن معه من الضباط بهزيمة التل الكبير تركوا مراكزهم وقاموا مع عساكرهم بقطارات السكة الحديدية الى المنصوره ومنها الى طنطا ثم الى اتياي البارود وهنالك انحل النظام وخرجت العساكر عن الطاعة وتوجه كل منهم الى بلده » . (٣)

ويقول الرافعي : « لم يكن البارودي على كفاءة من الناحية السياسية وكذلك لم تبدو منه كفاءة من الناحية الحربية على الرغم من نشأته العسكرية وعلى ما يفيض به شعره من الفخر والحماسة . وكل ما عرف عنه انه ذهب الى الاسكندرية عصر يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ فوصل اليها ليلا عقب انتهاء الضرب . وقيل انه لما تلقى الانباء الاولى التي اذاعتها الحكومة في العاصمة عن الضرب وكان معظمها مكذوباً ذهب الى الاسكندرية ليهنىء عرابي

(١) احمد الاسكندري ، الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، ص ٣٤٨
(٢) عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم احمد عرابي ، ص ١٩٦
(٣) احمد عرابي ، مذكرات عرابي ، ج ٢ ، ص ٣١ .

بالنصر فالفى الحالة على خلاف ما اذيع في العاصمة (١) ... ومضى اليوم التالي بالاسكندرية دون ان يعمل عملا ... ولما تم الانسحاب قفل البارودي راجعاً الى القاهرة ولم يشترك في وقائع كفر الدوار وكان جل عمله ان يرقب تطور الاحداث . ولما تحرجت الحال في الميدان الشرقي دعاه عرابي الى قيادة فرقة الصالحية وعهد اليه بالاشتراك في واقعة القصاصين الثانية التي كان يتوقف عليها الى حد ما تعطيل البريطانيين . ولكنه تخلف عن الاشتراك فيها ... اضف الى ذلك انه لم يشترك في واقعة التل الكبير بل عاد الى العاصمة بعد معركة القصاصين » . (٢)

وسلمت القاهرة في ١٨٨٢/٩/١٥ . والقي بزعماء الثورة في السجن ، وكان البارودي من بين المسجونين ،ولم يشفع له أصله الجركسي ولا كونه صهراً لأسرة محمدعلي فقد كان توفيق يخشى من طموحه على ملكه ويرى فيه عدواً لدوداً يجب التخلص منه .

يودع البارودي في السجن ويتملكه الجزع من الوحدة والظلام ،فهاهو يحشر في زنزانة ضيقة بدلاً من استوائه على العرش الذي كان يحلم به :

فقد حاطني في ظلمة الحبس بعد ما ترامت بافلاذ القلوب الحناجر(٣)

ويصف في إحدى قصائده التي نظمها وهو في السجن ماكان يعانيه فيه من وحشة وحزن :

شفني وجدي وابلاني السهر وتغشتني سمادير الكدر (٤)
بين حيطان وباب موصد كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا لحقته نبأة مني استقر

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٥٦٥ عن شهادة حسن بك صادق مصر المصريين ، ج٩، ص ٨١٠ .
(٢) المصدر السابق، ٥٦٥-٥٦٦
(٣) الديوان، ج ٢، ص ٧٣
(٤) الديوان ج ٢ ، ص ٨٦-٨٧ .

كلما درت لاقضي حاجة قالت الظلمة : مهلا : لاتدر

وتلاشى عزمه ، وهو يستنجد نفسه أن تصبر .

لقد خار البارودي وتأصل احساسه بالنقص في بؤرة الضعف التي عانى منها دائماً : ولم تسعفه عن طريق التعويض بالفخار والعظمة كما كانت تفعل دائماً :

فاصبري يانفس حتى تظفري ان حسن الصبر مفتاح الظفر

وكأنه يفتقد الصبر في نفسه إذاً ليستجر بقوة علية لعلها تعينه في بلواه :

هي أنفاس تقضي والفتى حيثما كان أسير للقدر

« وفكر البارودي وقد تسلط عليه اليأس ،في أن يجنب نفسه آلام الانتظار وامتهان الاعداء له بالانتحار فيقطع عرقاً من ذراعه ليموت بسهولة ولكن زملائه ذكروه بواجبه الديني نحو نفسه حتى لايخسر الآخرة بعد أن خسر الدنيا فثاب إلى رشده ورجع اليه صوابه واستغفر ربه من هذا التفكير » (١)

ولكن السلطات الانكليزية لم تسمح للخديو توفيق بإعدام زعماء الثورة، خشية أن يظهروا في نظر الرأي العام العالمي بمظهر الثوار . واكتفت بنفيهم عن مصر بعد أن عدتهم مجرد ضباط متمردين .وكان نصيب البارودي النفي إلى جزيرة سيلان . وقد جرد من جميع ألقابه ومناصبه وصودرت أمواله واملاكه .وقد انتاب البارودي الضعف وهو في السجن كما انتاب بعض زملائه وأصيب بخيبة أمل في الرفاق .وشعره في تلك الفترة العصيبة من حياته يشهد بذلك فلم يترك خلة ذميمة الا ولصقها بهم ، بل انه تنصل منهم ومن المسؤولية برمتها .

وبدأ من خلال شعره — وهذا ما كان — يريد ان يظهره للخديوي وبطانته وللمستعمرين الانكليز بانه انسان مخدوع اوقعته المقادير في ايدي الثوار (الاجلاف الاغبياء) .

---

(١) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٢٥٢ .

لأي خليل في الزمان ارافق ... واكثر من لاقيت خب(١) منافق (٢)
بلوت بني الدنيا فلم أرصادقاً ... فأين لعمري – الاكرمون الاصادق؟

فهو ينزع عنهم كرامة الاصل والصدق ويرميهم بالخداع والمخاتلة . وهو ينكر على زمانه – وهنا يستند على القدر ايضاً ويحمله مسؤولية الفشل انه ضيعه بين اناس لا اخلاق لهم . جهال فساق صبيان في تفكيرهم وتصرفهم مخادعون اقذار . فكان ان انصبت المصائب على رأسه وارهقته بثقلها وشمولها :

اضعت زماني بين قوم لوأن لي ... بهم غيرهم ما ارهقتني البوائق(٣)
فان أك ملقى الرحل فيهم فانني ... لهم بالخلال الصالحات مفارق
فاعلمهم عند الخصومة جاهل ... واتقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر ... ونغمة ود بينها الغدر ناعق
واخلاق صبيان اذا ما بلوتهم ... علمت بأن الجهل في الناس نافق(٤)

ويؤكد بلسانه انه لم يشاركهم الثورة ولكنهم هم الذين دعوه اليها . ويتهمهم بالهروب من المعركة وتركه يقاتل وحيدا مخدوعاً ، فورطوه ونجوا :

دعوني إلى الجلى فقمت مبادرا ... واني إلى امثال تلك لسابق
فلما استمر الجد ساقوا حمولهم ... الى حيث لم يبلغه حاد وسائق
فلا رحم الله امرأ باع دينه ... بدنيا سواه وهو للحق رامق (٥)

ويكشف الشاعر عن وجهة نظره في الثورة بصورة لاشعورية . فهي (شر مهلك) . هكذا يراها البارودي ، وقد حذرهم مغبة هذا (الشر) ولكنهم اغبياء لم يفهموا تحذيره فهم قاصرون عن الفهم وعن الصداقة الصادقة :

(١) الخب : الخداع .
(٢) الديوان ج٢ ص ٢٩٥-٣٠١ .
(٣) البوائق : جمع بائقة وهي المصيبة الشديدة .
(٤) نافق : منتشر .
(٥) رامق : يطيل النظر في الشيء .

على انني حذرتهم غب امرهم وانذرتهم لو كان يفقه مائق (١)
وقلت لهم : كفوا عن الشر تغنموا فللشر يوم — لامحالة — ماحق
فظنوا بقولي غير مافي يقينه على انني في كل ماقلت صادق
فتبا لهم من معشر ليس فيهم رشيد ولا منهم خليل مصادق

ويظهر بعد ذلك ندمه على اشتراكه معهم ويتمنى — كأي انسان اصيب بخيبة في امانيه — لو كان بعيدا عنهم كل البعد ، او لو انه راجع عقله ولم يشترك معهم ، او لو ان عائقاً وقف في طريقه وعاقه عن فعله . وكأني به يدعو ما تدعو اليه العجائز عندما يصبن بكارثة :

فياليتني راجعت حلمي ولم أكن زعيماً وعاقتني لذاك العوائق
وياليتني اصبحت في رأس شاهق ولم ار ما آلت اليه الوثائق

ويعود للتعريض بالثوار ، فيصفهم بالجبن والخديعة والشر وينتقص العهد وسوء الخلق (٢)

هم عرضوني للقنا ثم اعرضوا سراعا ولم يطرق من الشر طارق
وقد اقسموا ألايزولوا فمابدا سنا الفجر الا والنساء طوالق
مضوا غير معذورين لاالنقع ساطع ولا البيض في ايدي الكماة دوالق
اذا ابصروا شخصاً يقولون جحفل وجبن الفتى سيف لعينيه بارق
اسود لدى الابيات بين نسائهم ولكنهم عند الهياج نقانق (٣)

---

(١) المائق : الاحمق الغبي .

(٢) يقول الرافعي في كتابه الثورة العرابية ص ٥٦٦ «ولم يقف في اثناء المحاكمة الموقف الذي يتفق وزعامة الثورة او شجاعة القائد الحربي ... اخذ يتنصل من التبعات ويزعم انه كان مكرهاً على ما فعل بتهديد ضباط الجيش وانه لم يوقع على . قرارات الجمعية العمومية ببقاء عرابي وزيراً للحربية الا تحت تأثير الاكراه ..قال في هذا الصدد امام المجلس العسكري : ان الخوف كان موجودا من الاصل.فان لنا عيالا واموالا وربما لو امتنعنا لمسهما الضر.فلما سئل ممن الخوف؟ اجاب : **من العسكرية بالنظر لما حصل في الاسكندرية** .فكان موقفه اثناء المحاكمة خذلانا **للثورة والكرامة**» .

(٣) **نقانق : جمع نقنق وهوالظليم ، ويضرب به المثل في الجبن وسرعة الفرار .**

ويعود في قصيدة اخرى الى تبيان موقفه من الثورة فيقول : بأنه لم يردها وحاول وقفها ، ولكنه لم يستطع ان يوقف الثوار (المفسدين) وينحي باللائمة عليهم ويصفهم بالجبن والخسة ونقض العهد . ويدعي بأنه لو اراد الايقاع بهم لفعل . ويعود الى تعظيم نفسه ويصفها بالعراقة والاصالة :

فلاتحسبني جهلت الصواب ولكن هممت فلم أقدر
ثنت عزمتي ثورة المفسدين وغلت يدى فترة العسكر
وكنا جميعاً فلما وقعت صبرت وغادرني معشرى
ولوأنني رمت اعناتهم لقلت مقالة مستبصر
ولكنني حين جدا الخصام رجعت الى كرم العنصر (١)

وبعد ان جرد من ثروته اتكل الى الله يدعوه لأخذ حقه . وهذا موقف متخاذل ضعيف غير مؤمن بما اقدم عليه ، وليس موقف ثائر مؤمن بثورته ويؤكد بأنه لم يفعل شيئاً غير تقديم شعره ، الذي يصفه بالسيف القاطع . وهنا يتبرأ الشاعر من اشتراكه في الثورة .

ياناصر الحق على الباطل خذ لي بحقي من يدي ماطلي (٢)
اخرجني عما حوته يدي من كسبي الحر بلا ناطل (٣)
من غير ما ذنب سوى منطق ذى رونق كالصارم القاطل(٤)(٥)

وهذا موقف متخاذل يناقض ماتعودناه من تفاخر الشاعر واعجابه بنفسه وعدم اهتمامه بالمال كما يدعي في ابيات كثيرة من قصائده.ولكن هذه حقيقته فهو يدعو في شعره الى المحافظة على المال لان بالمال وحده يحترم الانسان في المجتمع حيث يقول :

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٥-٨٦ .
(٢) الماطل : الظالم .
(٣) بلا ناطل : بلاشيء .
(٤) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٩٨-١٩٩ .
(٥) القاطل : القاطع .

اذا افتقر المرء استهان بفضله ذوو قربه واستجهنته الاباعد
فان قال حقا كذبوه وان أبى مجارتهم في الغي قالوا معاند
فحجته مطلولة وهي حقـه ومنطقه مستكره وهو قاصد
فحافظ على مانلت باالسعي من غنى فبالمال لابالفضل تعنوا(١)المقاصد(٢

وفي ١٨٨٢/١٢/٢٠ تنقل باخرة انكليزية زعماء الثورة إلى جزيرة سيلا ومعهم محمود سامي البارودي الذي ذهب وحيدا ولم يصطحب اسرته مع إلى المنفى ، وقد صور البارودي الحزن الشديد الذي اصابه وهو يودع اها وقصوره ومركزه ، منفيا وحيدا في قصيدة طويلة يقول فيها :

ولم تمض الا خطرة ثم اقلعت بنا عن شطوط الحي اجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن(٣)
وما كنت جربت النوى قبل هذه فلما دهتني كدت أقضي من الحزن(٤)

ووصلت السفينة كولومبو عاصمة سيلان في ١٨٨٣/١/٩ « واعدت لهم حكومة سيلان اربع دور لسكناهم نزل البارودي وتابعه كافور مع محمو فهمي واسرته في واحدة منها» . (٥) ولم يسكن مع صديقه عرابي ، فقد ارا البارودي ان يبتعد عن زعماء الثورة ، فالامل لدية قوي بالعفو عنه، حيث يصدق انه سيعامل مثل المصرين ، هو الجركسي ابن الجركسي وصهر اسرة محمدعلي

البارودي والمنفى :

مكث البارودي وحيدا في كولومبو ، وانعزل عن الثوار الذين ظهر بينهم الانقسام على اشد مايكون(٦) وكان محمود فهمي صديقه الوحيد هناك . ويبدا للباحث انعزاله بهذا الشكل كان بسبب امله في الاعفاء عنه والعودة إلى القاهر فقد اراد ان يبدو امام الانكليز وكأن لاعلاقة تربطه بعرابي ورهطه . وانصرف

(١) تعنو : تذل وتخضع .
(٢) الديوان، ج ١، ص ٢١٣ .
(٣) الدجن : المطر الكثير .
(٤) الحديدي : ص ١٥٣ .
(٥) الحديدي : ص ١٥٤ عن مذكرات عرابي، ج ٢، ص ١٦١ .
(٦) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٥٥١- ٥٥٢ .

البارودي انصرافا كليا إلى الشعر يعبر عن حرقته وألمه وخيبته حتى يكاد لايصدق ما آل اليه امره ، فهو يقول في قصيدة مطلعها :

خليلي هل طال الدجى؟ أم تقيدت ... كواكبه أم ضل عن نهجه الغد (١)
أبيت حزينا في سرنديب ساهرا ... طوال الليالي والخليون هجد
احاول مالاستطيع طلابه ... كذا النفس تهوي غير ماتملك اليد
وما كنت اخشى ان اعيش بغربة ... يعللني فيها خويدم أسود

ويتوسل بشكل أو بآخر معارفه واصدقاءه وذوي الشأن لاعادته إلى القاهرة فلم يلائم مناخ سيلان صحته . وبدت آثار الشيخوخة تدمغه باصابعها الثلجية فيرثي نفسه ويندب حظه فيقول في قصيدة طويلة مطلعها :

ترحل من وادى الاراكة بالوجد ... فبات سقيما لايعيد ولا يبدي
سقيما تظل العائدات حوانيا ... عليه باشفاق وان كان لايجدي
يخلن به مسا اصاب فؤاده ... وليس به مس سوى حرق الوجد
به علة ان لم تصبها سلامة ... من الله كادت نفس حاملها تردى
أبيت عليلا في سرنديب ساهرا ... اعالج ماالقاه من لوعتي وحدى
ادور بعيني لا أرى وجه صاحب ... يريع لصوتي أو يرق لما أبدى
اقول له والجفن يكسو نجاده ... دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لي عونا على الدهر مرة ... فمالي أراك اليوم منثلم الحد؟ (٢)

وعندما لايستجيب احد لتوسلاته تثور في نفسه دماؤه التركية ، ويعوض خيبته بالفخر ، فيسرف اسرافا كبيرا ويعد ثورته ثورة عقيدة وايمان :

فان كان عصيانا قيامي فانني ... اردت بعصياني اطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى علي غضاضة ... وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق؟

* * *

وكيف يكون المرء حرا مهذبا ... ويرضى بما يأتي به كل فاسق

(١) الديوان، ج ١، ص ١٨٤-١٨٥ .
(٢) الديوان، ج ١، ص ١٧٢ .

فان نافق الاقوام في الدين غدوة فاني بحمد الله غير منافق (١)

ولكنه أبدا يعود إلى ذكرياته ، ويحن إلى ايام شبابه ولهوه وقصوره واهله . وقد عدها بعض الباحثين حنينا إلى مصر . (٢) ولكنني كما أراها من خلال شعره مجرد ذكريات لمراتعه وايام عزه ودعوة واسترحاما لتخليصه من منفاه ومما هو فيه من ذل . (٣) يقول في قصيدة مطلعها :

هل من طبيب لداء الحب اوراقي يشفي عليلا اخا حزن وايراق(٤)
قد كان ابقى الهوى من مهجتي رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقي
أكلف النفس صبرا وهي جازعة والصبر في الحب أعيا كل مشتاق
لافي سرنديب لي خل الوذ به ولاأنيس سوى همي واطراقي

وهذه النغمة مكررة تكاد لاتخلو منها اية قصيدة نظمها في سرنديب ، ثم يعود إلى ذكريات الروضة او المقياس او الاماكن الاخرى التي تذكره بمجده :

يا روضة النيل لامستك بائقة ولاعدتك سماء ذات أغداق
اذا تذكرت اياما بهم سلفت تحدرت بغروب الدمع آماقي
وان مررت على المقياس فاهدله مني تحية نفس ذات اعلاق

هذا بالاضافة إلى الروح الشعرية القديمة التي تكمن في مثل هذه القصائد اذا ما بدلنا اسماء المناطق باسماء مناطق اخرى في الجزيرة العربية . وهو يذكر الماضي بحرقة — كما فعل شعراء الوقوف على الاطلال — عندما يذكر مجده الغابر وايامه السعيدة :

عصر تولى وابقى في الفؤاد هوى يكاد يشمل احشائي باحراق

---

(١) الديوان، ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩ .
(٢) شوقي ضيف، البارودي ، ص ١٢٤ .
(٣) انظر الديوان ، ج ١، ص ٤٠، ٤١-٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ١٧٤-١٧٩، ١٧٩-١٨١، ١٨٥-١٨٩ ج ٢، ص ١٠٥، ٢٨٣-٢٩٥، ٦٦-٧٣، ٢٤٠-٢٤٨ .
(٤) الديوان، ج ٢، ٢٨٣-٢٩٠ .

ويعود إلى ندب الحظ وصروف الليالي كما لم يفعل من قبل ايام مجده وعزه:

والمرء طوع الليالي في تصرفها ... لايملك الأمر من نجح واخفاق
اسلمت نفسي لمولى لايخيب له ... راج على الدهر والمولى هو الواقي
ياقلب صبرا جميلا انه قدر ... يجري على المرء من أسر واطلاق

اليس هذا منتهى اليأس والخور ، ويعود إلى الامل مستندا فيه لا إلى عزيمته بل إلى قوة خارجة عن عزيمته اتكل عليها في جميع قصائده التي نظمها في المنفى

لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لاشراق

وتتوالى عليه الكوارث ، فتموت زوجته فيرثيها . ويموت بعض اولاده فيرثيهم ويموت بعض من اصدقائه فيرثيهم مثل عبدالله فكري وحسين المرصفي واحمد فارس الشدياق . فاذا كان الأول صديقه والثاني راويته فما موقفه من الثالث ؟ وقد كان من اعداء الثورة العرابية وعاملا اساسيا في في فشلها « ان السفارة الانكليزية بالاستانة دفعت لصاحبها — صاحب مجلة الجوائب وهو احمد فارس الشدياق — الف جنيه نظير اذاعة المنشور الذي اصدره الباب العالي يعلن فيه عصيان عرابي باشا سنة ١٨٨٢ وأن ذلك كان من اسباب اخفاق عرابي » . (١) فما دام الشدياق عدو الثورة فالمفروض ان يكون عدوه اللدود . فلماذا هذا البكاء والتوجع عليه في القصيدة التي بدأها بقوله :

متى يشتفي هذا الفؤاد المفجع ... وفي كل يوم راحل ليس يرجع
أبعد سمير الفضل احمد فارس ... تقر جنوب أو يلائم مضجع
وماكنت مجزاعاً ولكن ذا الأسى ... اذا لم يساعده التصبر يجزع
فقدناه فقدان الشراب على الظمأ ... ففي كل قلب غلة ليس تنقع
واى فؤاد لم يبت لمصابه ... على لوعة أو مقلة ليس تدمع؟

(١) عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج ١، ص ٦٧ .
(٢) الديوان، ج ٢، ص ٢٠٤-٢١٠ .

ولايكتفي بتعداد خلال الشدياق الحميدة ووده له بل يعده سديد الرأي حكيما في تصريفه للأمور . فهل كان حكيماً عندما دق مسمارا في نعش الثورة؟

ومثلك من زان الامور بعقله وأدرك منها مايضر وينفـع

ويؤكد وده للشدياق في آخر القصيدة :

رعيت بها حق الوداد على النوى وللحق في حكم البصيرة مقطع

هل اراد البارودي ان يبدو امام الحكام في مصر بأنه ليس مع ، الثورة، وانه لم يكن معها في يوم لعلهم يرقون له ويعيدونه الى مصر ؟ أم أنه ليس مع الثورة اصلا ، وقد اتخذها سلماً ، فلما فشلت الثورة في تحقيق اهدافه أزاح عن نفسه ذلك السلم المتداعي وسعى لايجاد سلم جديد؟ لانعتقد بالاحتمال الثاني ونرجح الاحتمال الأول :

يقول اناس انني ثرت خالعاً وتلك هنات لم تكن من خلائقي(١)

اذاً ماهي خلائقه؟ ان يتودد الى اصحاب الامر والنهي في القاهرة ، ويستكره معاشرة اصدقائه في المنفى ، ويستقبح أهل كولومبو الذين أحسنوا معاملة المنفيين واستقبلوهم استقبالا مشرفاً « قال يجيب بعض السادة عن قصيدة ارسلها اليه من الهند يخطب بها مودته » (٢) وقد بدأها بقوله :

قليل بآداب المودة من يفي فمن لي بخـل اصطفيه واكتفي؟(٣)

ماقاله عن الاصدقاء ليس جديداً في شعره ، فهو دائم الحذر من الناس ومن الاصدقاء . ومثل هذا المعنى مبثوث في ديوانه . فهو كثير التعالي على الناس منذ صباه ويظهر ذلك في شعره بوضوح فهو يتوهم فيهم الغدر والخيانة واظهار الاخلاص وابطال العداوة . (٤) ويشتد احساسه

---

(١) الديوان، ج ٢، ص ٣١٨ .

(٢،٣) الديوان، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٩ .

(٤) الديوان، ج ١، ١٣، ٢٢، ٣٩، ٦٢، ٢٢١-٢٢٢ . ج ٢، ١٤-١٥، ٧٦-٧٧، ٨٣، ١٧٧ .

في شعره بأن جميع الناس ضده فهو لايأمن جانبهم أبداً . (١)

بلوت بني الدنيا فلم أر صاحباً يدوم على ودّ بغير تكلـف

انه يفصح عن خبايا نفسه في لحظة انبعاث اللاشعور انبعاثاً قوياً ، ثم يعود لمهاجمة صحبه من الثوار المنفيين :

رضيت بمن لاتشتهي النفس قربه ومن لم يجد مندوحة(٢) يتكلف

ولو أنني صادفت خلا يسرني على عدواء الدار لم أتلهـف

ولا تكفيه مهاجمة صحبه ، بل يهاجم سكان الجزيرة الذين احسنوا رفدهم وتكريمهم وهو واقع بلا شك تحت وطأة الغربة والمرض والحسرة ، فتجمع كل ذلك غضباً وتنديداً :

زعانف (٣) هداجون(٤) في عرصاتهم كخيط (٥) نعام بين جرداء صفصف

حفاة عراة غير اخلاق(٦) صدره (٧) تطير كنسيج العنكبوت المسدف (٨)

يمجون من افواههم رشح مضغة كنضح دم ينهل من انف مزعف (٩)

اذا رطنوا بعضاً سمعت لصوتهم عزيفاً (١٠) كجن في المفاوز هتف

فها انا منهم بين شمل مبدد ومن حسراتي بين شمل مؤلف

وبعد ان يفرغ مافي جعبته من شجن وتنديد بالمنفيين معه وبأهل الجزيرة ، يعود ليكيل المديح لهذا الذي يرجو الخلاص على يديه ، هو الذي لم يعودنا

(١) ج ١ : ١٦ ، ٦٥ ، ١١٤ ، ١٩٠-١٩١ . ج ٢ : ١٩٠ .

(٢) مندوحة : سعة وفسحة .

(٣) زعانف : ارذال .

(٤) هداجون : المشي في اضطراب وارتعاش .

(٥) الخيط : الجماعة .

(٦) اخلاق : ممزق .

(٧) صدرة : قميص قصير .

(٨) المسدف : الممزق .

(٩) مرعف : الرعاف خروج الدم من الانف .

(١٠) العزيف : جرس يسمع بالمفاوز في الليل ويعتقد العرب انه صوت الجن .

على مدح أحد غير الملوك :

فان اخلفت نفسٌ طوية ماوأت(١) فلي من عليّ صاحبٌ غيرمخلف. . .
هو البطل السباق في كل غاية يهاب رداها المرء قبل التعسف
اذا قال لم يترك بياناً لقـائل وان سار لم يترك مجالا لمقتفي ...

وهو يبلغ كعادته في ايداع الصفات كاملة في نفسه عندما يفخر وها هو يودعها الممدوح :

وكيف وان أوتيت في النظم قدرة أضم شتات الكون في بعض أحرف ؟

ولم تجد توسلات البارودي شيئاً، فقد كان توفيق مصراً على ابقائه في المنفى، فهده الحزن واصابه مرض في عينيه كان يهدده بالعمى ، فاختلطت حسرته على (سوء فعلته)وعدم تبصره بالامور ، بدموعه الغزيرة وحنينه الى ايام المجد والعز . وحاول ان يجد التبرير لما فعل لعله يقنع نفسه به بعد ان تملكه اليأس من عيشه في سرنديب كما في قصيدته التي مطلعها :

لكل دمع جرى مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتئب ؟ (٢)
لو كان للمرء عقل يستضيء به في ظلمة الشك لم تعلق به النوب
ولو تبين مافي الغيب من حدث لكان يعلم مايأتي ويجتنـــب

وهل اكثر من هذا ندماً على اشتراكه في الثورة ؟ ، بحيث انه لو كان يعلم النتيجة لما أقدم ؟ فانبعث يتشوق الى الماضي الى ايام العز والمجد ، وتتقطع احشاؤه حزناً على فقدها :

فكيف اكتم اشواقي وبي كلف تكاد من مسّه الاحشاء تنشعب؟ ...
منازل كلما لاحـت مخايلها في صفحة الفكر مني هاجني طرب...

* * * *

ويعود الى طلب النجدة ، واثارة حمية السراة لعلهم يساعدونه في محنته

(١) وأت: عـزمت .
(٢) الديوان ، ج ١، ص ٤٧-٥١ .

ويخلصونه من منفاه :

فيا سراة الحمى مابال نصرتكم عزت عليّ ؟ وأنتم سادة نجب
اضعتموني وكانت لي بكم ثقة متى خفرتم (١) ذمام العهد ياعرب؟

ويبدو من قولهم انهم قد وعدوا بانقاذه ولكنهم لم يفلحوا ، لذا فهو يذكرهم بعهدهم وبما آل اليه امره :

أليس في الحق ان يلقى النزيل بكم أمنا اذا خاف ان ينتابه العطب ؟

ويؤكد على عدم انسجامه مع زملائه المنفيين ، ليوحي الى نفوس السراة بأنه بريء من فعلهم ، أو انه على الاقل نادم على مااقترفت يداه :

أبيت في غربة لاالنفس راضية بها ولا الملتقى من شيعتي كثب(٢)

وهنا يتبرأ تماماً من الزعماء المنفيين معه ، فهم ليسوا شيعته إما شيعته فهم هناك في مصر :

فلا رفيق تسر النفس طلعته ولا صديق يرى مابي فيكتئب
ومن عجائب مالاقيت من زمني اني منيت بخطب امره عجب
لم أقترف زلة تقضي عليّ بما اصبحت فيه ،فماذاالويل والحرب...

فيدافع عن نفسه ثانية ، بأنه لم يسع للملك بل انه كلام الوشاة لعله بابعاده هذه التهمة عنه يحصل على العفو المنشود :

وما أبالي ونفسي غير خاطئة اذا تخرص اقوام وان كذبوا
هـاإنها فرية قد كان باء بها في ثوب يوسف من قبلي دمٌ كذبُ

وسعى حاكم جزيرة سيلان الانكليزي في اعادته إلى مصر ،وسمحت السلطات الانكليزية بذلك ،ولكن توفيقاً بقي مصراً ،وبعد أن يئس من التخلص من منفاه دبت فيه شيخوخة مبكرة يقول في قصيدة يرثي بها صديقه حسين المرصفي وقد جاءه نبأ نعيه وهو في منفاه وانما يرثي نفسه :

(١) خفرتم : نقضتم .
(٢) الكثب : القرب .

أيـن أيام لـذتـي وشبـابي ... أتراها تعود بعد الذّهاب..(١)
ليت شعري متى أرى روضة المنيـ ... ـل ذَاتَ النخيـل والأعنابِ ...
قد أحاطت بشاطئيـه قصور ... مشرقات يلحـن مثل القباب...
ذاك مرعى أنسي وملعب لهويَ ... وجنى صبوتي ومغنى صحابي
لست أنساه ماحييت وحاشا ... أن تراني لعهده غير صابي .. (٢)

كيف لا أندب الشباب؟وقد أصبحت ... كهـلا في محنتـي واغتراب
أخلق الشيبُ جـدّتـي وكساني ... خلعة منـه رثة الجلبـاب
ولوى شعر حاجبـي على عينيّ ... حتى أطلّ كـالـهـدّاب
لا أرى الشيء يسـنـح الاّ ... كخيـال كأنـنـي في ضباب
وإذا ما دعيـت حـرت كأني ... أسمع الصوت من وراء حجاب
كلمـا رمـت نهـضـة أقعدتني ... ونيـة لا تقلّهـا أعصابي
لم تـدع صولة الحوادث مني ... غير أشلاء هـمّـة في ثياب

« ويدرك يعقوب سامي أن رئيسه السابق وزميله في الاغتراب وشريك النكبة يكاد يؤدي به الأسى ويوشك الحزن أن يقضي عليه فيحاول أن يأسو جراح صديقه ويخفف من نكباته والآمه فيزوجه بابنته (أمينة) أواخر عام ١٨٨٥ . وتتحمل الصغيرة مسؤوليتها بشجاعة » (٣). وكان عمرها تسع عشرة سنة فقط وعمره احدى وخمسين سنة . ورغم أن زوجته خففت الكثير من أحزانه عندما منحته الحب والولد الاّ أن صحة البارودي وعزيمته كانتا في تدهور مستمر، فيجدد السعي للسماح له بالعودة إلى القاهرة ولكنه يفشل ، ويثبت تقرير الأطباء ان وجوده في كولومبو يزيد في مرضه وربما يقضي عليه فينقله الحاكم البريطاني إلى مدينة (كندى) في الجنوب ، وهي ذات مناخ معتدل فينصرف إلى تعلم الانكليزية ونظم الشعر والقراءة .

(١) الديوان، ج ١، ص ٤٠-٤٣ .
(٢) صابي: مشوق .
(٣) الحديدي، ص ١٦٦ عن مذكرات الاسرة الخاصة .

وعندما احس البارودي بان بارقة الامل في اعادته إلى أهله وانقاذه من اسر المنفى ضعيفة لكثرة الاتهامات الموجهة اليه والدعاوي المؤكدة بأنه ما اشترك في الثورة العرابية الا أملاً منه في الوصول الى الحكم. انبرى يدافع عن نفسه ويبعد التهم عنه ويستعين بما تبقى له من شجاعة وصبر وهو في منفاه في سرنديب :

أسلة سيف أم عقيقة (١) بارق اضاءت لنا وهنا سماوة بارق؟ (٢)

ويؤكد الضيم الذي اصابه في المنفى دون أن يضعف ذلك من عزيمته أو يقلل من جلده وكأنه يستعين بالصبر والسلوان على البلاء الذي اصيب به :

كفى بمقامي في سرنديب غربة نزعت بها عني ثياب العلائق
ومن رام نيل العز فليصطبر على لقاء المنايا واقتحام المضايق
فإن تكن الأيام رنقن مشربي وثلمن حدي(٣) بالخطوب الطوارق
فما غيرتني محنة عن خليقتي ولا حولتني خدعة عن طرائقي

ويعود إلى الفخار بنفسه وذكر سعيه الحثيث الى المجد والرفعة :

فما أنا ممن تقبل الضيم نفسه ويرضى بما يرضى به كل مائق
اذا المرء لم ينهض لما فيه مجده قضى وهو كلّ (٤) في خدور العواتق(٥)

ثم يسعى لنفي تهمة طلب العرش عنه ويؤكد أنه ما ثار الا طلبا في تدعيم التعاليم الاسلامية والعدل من خلال الحياة البرلمانيه التي كان كل حر يسعى لاقامتها:

يقول اناس انني ثرت خالعا وتلك هنات لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالبا رضا الله واستنهضت أهل الحقائق

وقد جرت منه في الشطر الأخير فلتة لسان (اسقاط) فهو يشير إلى استنهاضه الرجال الذين يعرفون حقائق الامور :

(١) عقيقة : ما يبقى في السحاب من شعاع البرق .
(٢) الديوان، ج ٢، ص ٣١٤-٣٢١ .
(٣) حدي : بأسي وقوتي .
(٤) كل : لاخير فيه .
(٥) العاتق : الجارية التي لم تتزوج وهي بين الادراك والتعنيس .

أمرت بمعروف وانكرت منكراً وذلك حكم في رقاب الخلائق
فان كان عصيانا قيامي فانني أردت بعصياني اطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى علّي غضاضة وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق ؟
بلى أنها فرض من الله واجب على كل حي من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حرا مهذبا ويرضى بما يأتي به كل فاسق
فان نافق الأقوام في الدين غدوة فاني بحمد الله غير منافق

ويضع اللوم فيما حدث على عاتق حاشية توفيق ورجال السياسة ويتحاشى ذكر توفيق بسوء وهو رأس البلاء:

رأوا أن يسوسوا الناس قهرا فاسرعوا إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق

ويظهر أن ما حدث كان بسبب هياج الشعب والجند مطالبين بما وعدهم به الخديو وهو يسعى إلى أن يبعد عن نفسه المسؤولية :

فلما استمر الظلم قامت عصابة من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فاقبلوا اليهم سراعا بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما تألاه (١) من وعد الى الناس صادق
فهذا هو الحق المبين فلا تسل سواي فاني عالم بالحقائق

وهو يأمل بصفو الأيام وعودة الأوضاع إلى شكلها الطبيعي ليعود إلى الأهل والوطن وكأنه يستعطف الخديو من طرف خفي ويرجوه الصفح عنه . ويؤكد بأن رجاءه في الله لايخيب من تحقيق امنيته :

لعمري لقد طال النوى وتقطعت وسائل كانت قبل شتى المواثق
فإن تكن الأيام ساءت صروفها فإني بفضل الله أول واثق
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ويرجع للأوطان كل مفارق

(١) تألاه: اقسم عليه .

البارودي واليأس من الحياة :

تة الى الازمات النفسية على البارودي ، ويحس بأن كل صراعه من اجل الوصول الى امانيه يذهب ادراج الرياح ، فيموت في داخله ويبدو كأنه حي ميت . هذا الموت في الحياة بدا لبعض الباحثين زهداً . (١) انني لااجد في موت الحياة زهداً . . فالزهد هو التبرؤ من كل مايزيد على ابقاء النفس على قيد الحياة . هو الرضى بالحد الادنى مما يبقي الانسان على قيد الحياة . وهي فلسفة لها جذورها العميقة في تاريخنا العربي وفي تراثنا وفي التراث الحضاري لدى الشعوب المسيحية والبوذية والبرهمية . يرفض الزاهد عادة نشب الحياة وهو في عزّ قوته — لافي حالة ضعفه — وفي شبابه — لافي شيخوخته — وفي عز قدرته وسطوته — لافي حالة انهيار مركزه — . ولا يذكر الزاهد ماضيه الا مشمئزاً لسيطرة شهوة الحياة عليه — فهو لايفخر بماضيه — ويرضى عن قناعة بما هو فيه ولا يذكر ماكان بل هو سعيد بما صار اليه . ولا يحلم بالماضي القشيب والحياة المنعمة . وهو سعيد بحالته فان الزهد لديه سعادة ، ولا يحيي الذكريات الماضية ليبحث عن السعادة في اجوائها . وزهده هو الفرح — وليس الحزن والبكاء — والزهد ينبع من نفسه ولا يأتيه نتيجة ظروف قاهرة خارجة عن ارادته . ويرى الزاهد في زهده الخلاص ولا يأمل بالخلاص عن طريق عودته الى حياته السابقة . ويرفض الزاهد ان يساعده الآخرون ولا يطلب مساعدة احد ، لان يتوسل بالآخرين لانقاذه مما هو فيه .

بهذه السمات الاساسية الجذرية ، يجد الباحث الفرق بين الزهد وبين حالة اليأس التي عاشها البارودي في كندى والتي تقرب من حالة الموت الداخلي . الموت في الحياة .

---

(١) شوقي ضيف ، البارودي ، ص ٩٣-٩٦ . الحديدي : محمود سامي البارودي ، ص ١٧٠-١٧٤ ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، ص ٤١-٤٣ .

يقول في قصيدة مطلعها :

الام يهفو بحلمك السطرب أبعد خمسين في الصبا أرب (١)
هيهات ولى الشباب واقتربت ساعة ورد ونابها القَرَبُ (٢)

اذاً لو لم يذهب الشباب ويقترب من الموت لما عزف من الحياة ودعا الى الآخرة :

فليس دون الحمام مبتعد وليس نحو الحياة مقترب
كل امرىء سائر لمنزلة ليس له من فنائها هرب

انه كلام يذكرنا بمقولات قديمة قالها الشعراء الاحناف والشعراء المسلمون . الا ان زهد اولئك كان زهداً حقيقياً يغلب عليه الصدق والايمان شأن طائفة المتصوفة :

فتب الى الله قبل مندمة تكثر فيها الهموم والكرب

أتراه يتوب نادماً . ليكسب الجنة كي لايعاني الكرب الذي عاناه في الحياة . ان الله غفور رحيم على العكس من الخديو الحقود الظالم . انه يخشى جحيم الآخرة فهو لاقبل له بجحيم الدنيا — الندم والكرب في منفاه — فكيف بجحيم الآخرة ؟

ويحدثنا عن حتمية الموت في قصيدة اخرى وعدم أهمية الحياة ، بحجج سطحية لاتدل على فهم لطبيعة الزهد بقدر ماتدلنا على اليأس من الحياة . يقول في مطلعها :

كل حي سيموت ليس في الدنيا ثبوت (٣)

ان حالته النفسية تطفو على شفتيه . لقد غيرت الدنيا حاله فلا ثبوت للدنيا . فاذا ماثبتت له فماذا سيفعل ؟ ان الدنيا تذكره بأن الموت سيصيبه لانه ظاهرة حتمية وهي دلالة يعرفها الجميع . ولكننا رغم ذلك نرى الطمع والتكالب على الحياة يسوقهم سوقاً :

---

(١) الديوان، ج ١، ص ٦٨-٧٢ .
(٢) القرب : سير الليل لورد الغد ويقصد بها أن ذهب معظم العمر .
(٣) الديوان، ج ١، ص ٧٩-٨٠ .

ايـهـا الـسـادر قل لي أيـــن ذاك الجـبـروت ؟

من هو السادر الذي فقد جبروته والشاعر يحدثه ؟ هل هو نفسه يريد اقناعها؟:

ايـن امـلاك لهـم فـي كـل أفـق مـلـكـوت (١)
انمـــا الـدنـيـا خيال بـاطـل ســوف يفـوت
ليـس لـلانسـان فيهـا غيـر تقـوى الله قـوت

وهوفي غالب الأحيان يطلب الموت ليخلصه من حياة لايريدها ، لأنها خذلته وخيبت ظنه . وهو طالما يوازن بينها وبين ماضيه السعيد . وهذا هو اليأس لا الزهد . فهو يبدأ قصيدة من هذا النوع بقوله :

لقد طال عهدي بالشباب وانه لأدعى لشوقي ان يطول به عهدي(٢)
فليت الذي حاز الشبيبة ردّها وليت الذي أهدى لنا الشيب لم يهد
كأني وقد جاوزت ستين حجة مسحت بها عن ناظري سنة الفهد

فما الذي اضافه لما قاله زهير قبله بأكثر من الف عام .

فسحقا لدار لايدوم نعيمـهـا وتبا لخل لايدوم على العـهـد

إذاً هو ينعي على الدار والخلان عدم الدوام . وبالتالي ينعي على الحياة عدم استمرارها في المتع واللذة والشباب . . فما دامت قد تغيرت عليه وافقدته الأصدقاء والدار اذاً فهي الموت .

وكيف يلذّ المرء بالعيش بعدما رأى أن سمّ الموت في ذلك الشهد؟

اذاً فلا بديل للنعيم غير القنوط والاستسلام لارادة الله لعله يبدل نعيم الحياة الذي فقده بنعيم الآخرة

فدع ما مضى واصبر على حكمة القضا فليس ينال المرء ما فات بالجهد

أليس القنوط مجسدا في هذا البيت أنه نفثة يأس قوية ، بل نفثة انسان ميت فما دام عاجزاً عن القيام بأي عمل تجاه القدر . فالبديل هو الله يعبده :

(١) ملكوت : الملك والعز .
(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

ولا تلتمس من غير مولاك هاديا اذا الله لم يهد العباد فمن يهدي؟

ترى لماذا لم يعبد الله عندما كان في أوج شبابه وقوته وجاهه ؟

أما الحنين الى الماضي والى أيامه السعيدة فهو التعادلية لليأس من الحياة الذي نشأ نتيجة لفقدها والتحسر عليها ، كما نرى في القصيدة التالية :

أنسيم سرى بنفحة رند ؟ أم رسول أدّى تحية هند ؟(١)
أطربتني أنفاسه فكأني ملت سكرا من جرعة من (برندي)(٢)

طال شوقي الى الديار ولكن أين من مصر من أقام بكندى
كلما صورته نفسي لعيني فدح الشوق في الفؤاد بزند (٣)
لي به صاحب علي عزيز مثل ماعنده من الشوق عندي
لست اقوى على الزمان وان كنت أفل العدا بقوة زندي

هذه الذكرى التي يسعى اليها هي بديل لواقعه الذي يصفه بقوله :

تكاؤتني (٤) خطوب لو رميت بها مناكب الارض لم تثبت على قدم
في بلدة مثل جوف العير لست ارى فيها سوى أمم تحنو على صنم
لااستقر بها الا على قلق ولا ألذ بها الا على ألم
اذا تلفت حولي لم اجد أثرا الا خيالي ولم اسمع سوى كلمي(٥)

لذا حاول ان يملأ فراغ يومه « ويقال : انه عني بتعليم بعض مسلمي كندى القراءة والكتابة حتى يعرفوا لغة دينهم الحنيف وكان يؤم المسلمين هناك في بعض الجمع » . (٦)

---

(١) الديوان، ج ١، ص ١٨١-١٨٤ .
(٢) برندي : نوع من الخمور الفاخرة .
(٣) الزند : العود الذي تقدح من النار .
(٤) تكاؤتني : اضنتني .
(٥) الحديدي : ص ١٣٣ .
(٦) شوقي ضيف، البارودي، ص ٩٤ .

وبعد موت الخديو توفيق مدح البارودي خليفته عباس الثاني ، آملا بالاعفاء عنه عام ١٨٩٦ ولكنه صم أذنيه عنه فيبلغ اليأس من نفس البارودي مبلغاً كبيرا :

ابعد ستين لي حاج فاطلبهـا ... هيهات مالامرىء بعد الصبا حاج(١)
ان ابن آدم في الدنيا على خطر ... لايستقيم لـه قصد ومنهاج
يهوى البقاء ومكروه الفناء بـه ... ويستعز بأمن فيه ازعاج
لاآحفل الطير ان غنت وان نعبت ... سسيان عندي صفار وشحاج(٢)

ويصرخ وهوفي اقصى درجات اليأس :

متى ينقضي عمر الحياة فتنقضي ... مآرب كانت علة للمظالم (٣)

ويموت عدد من المنفيين في سيلان لعدم موافقة المناخ لصحتهم ،وتبذل مساع جديدة للعفو عن البارودي خشية موته . فقد تدهورت صحته تماماً، وبذل محمد عبده مساعي عظيمة فيحقق هدفه . وقد وصلت السفينة ميناء السويس في ١٨٩٩/٩/١٢ . وهي تقل على ظهرها البارودي وقضى البارودي اربع سنين في داره، ثم اعاد له عباس الثاني امواله المصادره واملاكه وانشغل البارودي بجمع ديوانه ومنتخباته الشعرية ليعدها للطبع ومات عام ١٩٠٤ . ولم ينس ان يفخر بنفسه وهو على فراش الموت يستعد لمقابلة ربه . وكأنه لايريد ان يقابله ضعيفاً . وهذا مايبعد فكرة زهده . فالزاهد لايفخر بنفسه وهو على فراش الموت بل يسعى الى مقابلة ربه متواضعا سعيدا بهذا اللقاء :

انا مصدر الكلم النوادي ... بين الحواضر والبوادي(٤)
انا فارس أنا شاعـــــر ... في كـل ملحمـــة ونادي
فاذا ركبت فـــانـنـــي ... زيـد الفوارس في الجـــلاد

(١) الديوان، ج ١، ص ٨٧-٨٨ .
(٢) شحاج : صفة لصوت الغراب .
(٣) الديوان، ج ١، ص ٢٠٦ .
(٤) الديوان، ج ٣، ص ٤٦٠ .

واذا نطقـــــت فـانني قس بن ساعدة الايادي
هـذا وذلك ديدنـــــي في كـل معضلـــة تـــآد (١)

وسكت البارودي الذي عاش حياة قلقة مضطربة له ومضى دائما يحاول الوصول الى مايريد وينشد قصائد الفخر المتضخمة دائما بوجود الذات لتعطية القدرة على التوازن ومصارعة الحياة التي اعطته الكثير فسعى الى اكثر مما اعطت بدافع الطموح .

(١) تآد: الداهية .

المصادر

١ . أحمد الاسكندري ، الوسيط في الأدب العربي وتأريخه . مطبعة المعارف ، القاهرة . بلا .

٢ . أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

٣ . أحمد عرابي ، كشف الستار عن سر الأسرار ، مطبعة مصر ، القاهرة ، بلا .

٤ . أحمد عرابي ، مذكرات عرابي ، دار الهلال ، القاهرة . بلا .

٥ . جرجي زيدان تأريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلا .

٦ . جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلا .

٧ . جرجي زيدان بناة النهضة العربية ، دار الهلال ، القاهرة بلا .

٨ . حسين المرصفي ، الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ، مطبعة المدارس الملكية ، القاهرة ، ١٢٩٢ هـ .

٩ . حنا الفاخوري ، تأريخ الأدب العربي ، المطبعة البولسية ، بيروت ، ١٩٥٤ .

١٠ . زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ، دار الكاتب العربي القاهرة ، ١٩٦٨ .

١١ . شوقي ضيف ، البارودي رائد الشعر الحديث ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٢ . شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، بلا .

١٣ . عباس محمود العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم في القرن الماضي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٤ . عبد الرحمن الرافعي ، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٥ . عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم أحمد عرابي ، دار الهلال ، القاهرة بلا .

١٦ . علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٧. علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٦٩ .
١٨. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث. مطبعة الارشاد. بغداد ١٩٧٢ .
١٩. عمر الدسوقي في الأدب العربي الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
٢٠. عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي . دار المعارف ، القاهرة . ١٩٧٠.
٢١. ماهر حسن فهمي الحنين، والغربة في الشعر العربي الحديث . معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة . ١٩٧٠ .
٢٢. لجنة من ادباء الأقطار العربية . الغزل . دار المعارف القاهرة ، بلا.
٢٣. محمد حسين هيكل تراجم مصرية وغربية . مطبعة مصر القاهرة . بلا .
٢٤. محمد صبري، شعراء العصر مطبعة الدرب الاحمر . القاهرة ١٩١٠ .
٢٥. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، بلا .
٢٦. محمد محمد حسين ، الاسلام والحضارة الغربية ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٦٩
٢٧. محمد محمد عبد الفتاح اشهر مشاهير ادباء الشرق القاهرة . بلا .
٢٨. محمود حامد شوكت ، مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٦ .
٢٩. محمود سامي البارودي، الديوان الطبعة الاولى دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٠ .
٣٠. محمود سامي البارودي، الديوان الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة ١٩٥٤، ١٩٧٢ .
٣١. ميكافيللي الامير ، ت : محمد لطفي جمعة . القاهرة بلا .
٣٢. القرآن الكريم .
٣٣. مجلة الهلال دار الهلال ، القاهرة يونية ١٩٧٧ .